(٩)

لمحة عن حياة جويس

كان الباحثون فى أدب يوليسيز فى حيرة للاهتداء الى ترجمة وافية بالغرض للمؤلف حتى سنة ١٩٤٠ ، فاهتدوا الى ترجمته بقلم هربرت جورمن ، وهو صديق للمؤلف وعشير وقسيم ، يكاد يكون ملازماً له فى أعوامه الأخيرة ، وقد كتبها قبل وفاة المؤلف بعام واحد ، فطابقت قصدهم وإن تكن ناقصة عن غايتهم ، ولكنهم قابلوها على أنها خير ما وضع عنه ، فكشفت لهم أنه نشأ فى أسرة وسط ، وتعلم عند الجزويت ، ونبغ فى اللغات نبوغاً مبكراً ، وبدأ الكتابة فى التاسعة من عمره ، ونكب فى حياته ، وهاجر من وطنه خوفاً من أن يبتلعه ويئده ، وأنه عاش ثلاثين سنة فى الغربة يرتزق من التدريس بدريهمات معدودة ، وأنه تزوج فى شبابه وضيّع معظم عمره فى السعى على رزقه ورزق أولاده مبكراً ، وأنه اختلس أوقات التأليف من الزمان اختلاساً .

وقد أدركت كيف أن صاحب المواهب الصريحة المعترف بها

يضحى بها على مرأى ومسمع من المعاصرين والمعجبين فى سبيل العمل المذل ، سعياً على الرزق ، وهو الأمر المشاهد فى تاريخ النوابغ ماعدا سعداء الحظ منهم وهم قليل أمثال جوته وتوماس مان، ولكن جميع الآخرين أتموا أعمالهم المستعدين لها بمواهبهم ، وهى التى قدستها الإنسانية بعد فوات الوقت اختطافاً واختلاساً من الزمن وانتهاباً من مشاغل الحياة ومشاكل الأسرة وهموم الرزق، وإنك لترى حميراً وبغالاً وأوغاداً يقضون عشرات السنين فى أعمال غير مجدية البتة ، وعندهم من الفراغ وفسحة الوقت والجدة والطمأنينة وعدم التكليف بالسعى والتحرر من قيود الحياة مايكفى للإنتاج المجدى ، ومع هذه النعم كلها فلا يعملون ولا ينتجون شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم .

غير أننى بعد طول التفكير وإنعام النظر فى هذه المعضلة التى قد تعد من أحاجى الحياة وألغازها ، وصلت الى حل أقنعت نفسى بقربه من الصواب ، وهو أن تلك المشغولية والهموم المتواصلة التى يبدو للناس أن الرجل النافع يئن من حملها ويشكو دهره من ثقل وطئتها ، أدعى الى انطلاق مواهبه وإيجاد الحوافز لإنتاجه ، وأبلغ فى إرغامه على التفكير والعمل ، وإن لم يكن فى حاجة الى

حـافـز لما ركب فى فطرته من الدواعى القـويه للظهـور والازدهار والإثمار ، كالشجرة التى يتحتم بحكم الطبيعة أن تنوء بقطفها فى أوانها ، ولكن الطبيعة تحاذر وتبالغ فى الحيطة حتى تضمن بطريقة لا شك فيها النتيجة التى تريدها ، وأداء الوظيفة التى صنع العبقرى لأدائها على الوجه الأكمل .

ألا تراها فى عملية التلقيح تبذل الطبيعة من البذور اللازمة للنسل مـايربى على الملايين ، فى حين أنهـا لاتحـتـاج إلا الى بذرة واحدة ، وهكذا خطتها فى كل أحوالها فى عوالم الانسان والنبات والحيوان .

أما الحمير المطمئنة الميسورة التى ذكرناها آنفاً ، فقد جعلت فى أذناب الخليقة كذؤابة الشعر التى فى أذيال الأنعام ، فلا يهم أحداً أن يذبّ الفرس بذيله ذباباً كثيراً أو قليلاً ، أما النابغ فإنتاجه فى الدرجة الأولى من الأهمية للإنسانية كلها ، ووظيفته الاجتماعية تجعله فى مقام رجل له رسالة ، فما أعظم الفرق بين صاحب رسالة وبين حمار أو ذيل حمار !؟

وأضيف أن أعمال العبقرى وإن كان يتمكن منها اختطافاً واغتصاباً من الزمن واختلاساً من الدهر على حساب حياته وحياة

أسرته ، فإنها تكون سهلة مباركة حلوة الطعم ، لأنه يعمل لها بلذة وسرور وانشراح نفس وانبساط قلب وتوفيق دائم ، مهما كلفته من العناء ، لأنه يقوم بواجبه دون أن يشعر أنه واجب ويستغرق فيها بغير وعى أو إدراك للمشقة التى يبذلها أو الوقت الذى يقضيه ، وشتان بين من يعمل أشق الأعمال وكأنه يمرح أو يلعب وبين من يعمل أهون الأعمال وأيسرها وهو يشعر بثقل لا يطيقه .

ورث جويس عن أبيه نوعاً من التحرر من قيود المجتمع ، وعن أمه حب الموسيقى وجمال الصوت ، ولم يرث عنهما غير الهموم والأحزان وأشد الذكريات ألماً وحسرة ، وشعر بالظلم فى طفولته ، فثار على أساتذته الجيزويت وعلى حكام وطنه ، وعلى المنافقين من قومه الأغنياء أصحاب الإقطاع وتلال العقارات فى المدن والأرياف ، لكثرة ما أرهقوا الطبقة الفقيرة وزعزعوا أمنهم واطمئنانهم ، فنبتت فى نفسه عاطفة حب العدل ، وتعود كثرة التنقل من بيت الى بيت ، وأخذ يتشبث بحقه فى البقاء فى الدور المأجورة ولو اقتضى الأمر التقاضى ونقل النزاع للمحاكم ، وكأنه كان يقول للمظلوم أن يرفع ظلامته للقضاة ، وللأديب المهضوم العاجز عن الأخذ بثأره أن يقتص من خصومه بقلمه ، فإن ما يلحقه من الأذى من خصومه

زائل ، ولكن ما يلحقه هو بهم خالد فى بطون الكتب .

وعرف عنه اقتداره اللغوى وحسن أسلوبه وجمال تنسيقه وسعة اطلاعه ، ولكنه كان فى الجامعة عيوفاً مترفعاً حتى ليظن أنه فاتر العاطفة ، وأحب توماس كيتل من زعماء الشباب فى ايرلاندا ، وكان يظن أنه سيخلف بارنل ، وشهد حركة إحياء ايرلاندا على يد ييتس ، ولكنه لم يوافق على إحياء اللغة القديمة على حساب اللغة الانجليزية خشية من العزلة ، لأن الايرلندية القديمة لغة ميتة والانجليزية حية، وكان مهيباً محذورا أكثر منه محبوباً ، لأنه كان دقيق الملاحظة ، سريع الغضب ، حاد اللسان ، قليل التسامح فيما يمس كرامته ، وكان يسوءه ما وصل اليه مركز والده ، فقد سارع الى الانحدار والهبوط المادى والاجتماعى ، وتشتت شمل الأسرة بعد وفاة الأم .

وتأثر جويس فى أول أمره بأدب هنريك ايبسن النرويجى ، فلما بلغ الثانية والعشرين من عمره وقبيل هجرته من وطنه ، نشرت مجلة « فورتنيتلى » مقالا عن ايبسن ، وكان شديد الحيوية ، قوى المزاج فى المرح والسخرية ، ويستطيع أن يكون جاداً وقوراً عند مقتضى الحال ، ومن أكثر ما كان يرى فى شبابه مستهتراً

مستخفاً وليس هذا من طبعه ، ولكن اتخذه وسيلة ليتقى الخصومة والشماتة ويستر فقره بين أترابه ، ويعوق الأنذال عن التعالى عليه أو تعييره بفقره ، فكان يعالج حالته الخاصة بذلك المظهر الذي يخيف الأعداء ويقفهم عند حدودهم ، فأساء الجهال ظنونهم وتربصوا به الدوائر وتعمدوا الإساءة إليه .

فقصته قصة كل موهوب لم يسعفه الدهر بأدوات الحياة ولوازمها ، فاضطر أن يكافح ويستمر كفاحة وأسباب كفاحة ، وهو فى نفس الوقت يريد الظهور بمظهر يليق بمواهبه ، وقد أحسن الى نفسه إذ تزوج مبكراً من فتاة مرحة ، أظهر وصفها فى كتابه أجمل وصف ، وكتب الى ايبسن خطاباً يعبر عن إعجابه به ، واجتمع بجورج رسل مصلح ايرلاندا الاجتماعى ، وشيخ متصوفيها المحدثين وشرح طريقته، وحاول أن يتصل بكل رجل نابه فى وطنه وفى غيره ، وفى سنة ١٩٠٢ فى تمام الثانية والعشرين من عمره ، هاجر من وطنه ، وكان إذ ذاك ممتازاً فى الحديث والتفكير والكتابة، وكان اشتهر فى دبلن عاصمة بلاده وطار صيته لتتفتح مواهبه تفتحاً مبكراً ، ولم يكن منافقاً ولا مترددا ، فلم يتستر ولم يسع لنفع خاص به ، وقد نال درجة بكالوريوس فى أوانها .

ولكن كان حاقداً على وطنه لتأخره ولكاعة أهله ولذا وصف قومه بأنهم أكثر شعوب أوروبا تقهقراً ، وأنهم بقايا قبيلة بائدة وأنهم أعانوا ظالميهم بانحطاط أخلاقهم وقناعتهم وتدينهم ومحافظتهم واستسلامهم للظالم ، فرأى وجوب الهجرة فرضاً عليه وعلى أمثاله ، لأن الأرض واسعة الفضاء ولن تضيق دونه ، فلما بلغ لندن احتفى به على نضارة شبابه رجال الأدب من أهل وطنه ، وأرادوا استبقاءه ووعدوا بعونه ليشق طريقه بينهم وكان منهم أوكونور وبرنارد شو وبيتس وغيرهم ، فلم يقبل دعوتهم وواصل هجرته الى باريس ، وحاول دراسة الطب ، ووضع لنفسه خطة للدرس فى الفلسفة والتاريخ واللغة إلى جانب دراسته الطبية ، وقرأ سبنسر وسباينوزا ، فلما اكتشف علي حد قوله أنه يفكر مثل سباينوزا – صاحب مذهب وحدة الوجود – دخله الشعور بالكبرياء والعظمة . وهما على الأغلب نتيجة الوحدة والفقر .

وقد أصاب سباينوزا نفسه الذى قضى حياته فى وطنه لاهاى فقيراً منبوذاً يعيش من عمل يديه فى الساعات ويضع أساس فلسفته ، ولكن كان مقسوماً لجويس أن يكون سباينوزا من نوع آخر ، وأن يضع فلسفة وإن اختلفت عن وحدة الوجود ، إلا أنها تدل

عليها بطريقة أخرى ، وقد عاش جويس فى باريس أشهراً كثيرة عيشة المفلوكين من جوع ونقص فى الثياب وقلق فى السكنى وحيرة فيما يأتى به الغد ، وكانت سنة ١٩٠٣ أقسى سنوات حياته .

ولم ينقذه من هذا البلاء إلا وصول برقية من أبيه تنبئه بإشراف والدته على الهلاك ، فاقترض أجور السفر من باريس الى دبلين من أحد تلاميذه ، وأقام بجوارها أربعة أشهر ، لأنها كانت مريضة بالسرطان ، ولم يجاهر بهذا السر إلا جويس فى مسرحيته فى كتاب عولس ، وكانت فى نضارة العمر ولكن هذا الداء الفظيع ذهب بشبابها وجمالها ، لأنها لم تكن تزيد على ٤٤ سنة ، وقد عاش أبوه بعدها ثلاثين عاماً أى أنه مات سنة ١٩٣٣ ، وشهد شهرة ابنه، ولكنه كان وصل الى الدرك الأسفل من الانحطاط الاجتماعى ، وطالما أعانه ولده فى أخريات أيامه لأن أواصر القرابة كانت قوية فى نفس جيمس ، سواء على البعد أو القرب .

فى سنة ١٩٠٣ ذاق الويلات فى الغربة وماتت أمه فى شهر أغسطس منها ، (مريم حنينه جويس) ، وحزن ابنها حزناً شديداً ، وحاول أن يقيم فى دبلين ويتم دراسة الطب ، وأن يدرس الأدب والفلسفة ، كما كان يفعل فى باريس ولكن طلبة الطب من رفاق

صباه التفوا حوله وأغروه بمغريات الشباب فأطاع هواه وضل سواء السبيل وأخذ يزور مدينة الليل « نايت تون » التى أخلدها بشرورها وفظائعها وشخصياتها فى مسرحيته ، فبدد مابقى له من مال وبدد شطراً من عمره وأفاد اختباراً مريراً ، وأشعره مزاجه الشعرى بالضجر الذى أصاب بودلير وهو القلق الملازم كأنه صداع لايحتمل، فلما نضب معينه أخذ يرتزق بالتدريس لتمكنه من اللغات الحية والبائدة ، ثم اضطره الضيق لهجرة دبلين ليعيش فى برج « مارتلو» المهجور بساندیکوف على مقربة من « جلاستهبول » وأن يقاسم السكنى فى ذلك البرج طالب طب آخر هو « أوليفرسانت جون جيوجارتى » الذى خلع عليه اسم بوك موليجان ، وافتتح كتاب عولس بذكره ووصف حياتهما فى البرج المهجور (فترة ربيع ١٩٠٤).

وحاول صديقه أن يؤثر عليه ويستميله الى جانبه ، ليعرض عن دراسة الأدب ولكن شخصية جويس كانت أقوى من أن تخضع لشخصيات أضعف منها ، وفى تلك الفترة واصل دراسته فقرأ فلسفة أرسطو وتوماس أكونياس ، وصمم على أن يخلق فناً جديداً فى الأدب ، ويؤسس مدرسة أدبية يكون زعيمها ، وهى طريقة لم

يسبق لها مثيل فى وطنه أو فى غيره من الأوطان ، ورسم لنفسه خطة العمل فكان منشغلا بالشعر وبالقصص القصيرة ، وبقصة واقعية طويلة (أهل دبلن) ، وبكتاب يروى فيه تاريخ حياته وتكوين عقله ومذهبه الفنى (كتاب حياة الفنان شابا) .

وفى ١٦ يونيه من تلك السنة ١٩٠٤ عرف وأحب « نورا جوزيف برناكل » وهى التى خطبها وعقد عليها وصحبته فى الغربة وولدت له أولاده وبناته ولازمته الى أن مات فى الستين من عمره .

ولهذا اختار يوم ١٦ يونيه ١٩٠٤ ليخلده فى كتابه ، وكان لحب نورا أثر قوى فى حياته فتغير مجراها ، ولكن حياة دبلن فى سنة ١٩٠٤ بقيت مرسومة فى ذهنه رسماً قوياً فأخلدها فى عولس، ولم يكن يوم ١٦ يونيو ذا شأن أو خطورة أو ذكر خاص ولم يتمايز عن غيره إلا بجنازة دنجام ، وبولادة عسرة ، وبزيارة ايرلنديين جاءا من أمريكا وطلبا أن يزورا البقعة التى شنق فيها « روبرت ايمات »، وهى بقعة مقابلة لكنيسة سانت كاترين بشارع توماس ، ولكن جويس كان يبغض دبلن من صميم قلبه لأنه رأى فيها من المرارة والعذاب أكثر مما رأى من الخير والعطف ، ولكن حياتها لازمته وسكنت عقله ، وتقدم الى مسابقة غنائية ففشل وشعر بالزعزعة

والقلق يعاوده ، وجذبته حياة باريس من جديد ، لأنه لم يستطع أن يعتزل الناس بما يكفيه مؤونة دراسته ، ولم يجد الطمأنينة والثبات الكافيين ، وفوق هذا كله أراد أن يعيش فى أوروبا تلك القارة التى يعيش فيها إيبسن مؤلفه المختار وأمثاله : هويتمان ، دانونزيو ، مترلنك ، فأصبح جويس يعتبر المنفى وطناً له ! يا لسخرية الزمن ! فغادر دبلن فى خريف ١٩٠٤ التى تعد سنة القدر التى تحتمت فيها أمور أربعة في حياته :

١ - حبه وخطبة « نورا » لتكون زوجته ورفيقة حياته .

٢ - اختيار أحد أيامها ليسجل عصره ويجعله يوم الكتاب الموعود .

٣ - ثبوت فشله فى وطنه .

٤ - تصميم هجرته .

ولكن مايصنع الزوجان الشابان فى بحر الاغتراب الخضم ؟ يعيش على التدريس .

فلما لقيه أصدقاء من بنى وطنه فى لندن عرضوا عليه الإقامة بينهم ووعدوه بتسهيل شئون الحياة وصبغوا له المستقبل بلون الورد فأبى واعتذر ، فوصفوه بالعناد وشدة المراس والجهل بتقدير القيم ،

فكان لا يبالى بنقدهم ، ومازال يقول «تا الله وبالله ووالله لأرينهم جميعا أننى سأضع فى عشر سنين كتاباً يلفت نظر الدنيا بأجمعها» (يقصد الى صورة الفنان شابا) وقد بر بقسمه ، ونشر ذلك الكتاب فى سنة ١٩١٤ .

فلما لم تثمر معه نصائح أصدقائه والعاطفين عليه فى لندن تركوه وشأنه ، فبلغ باريس يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، ولم يجد بها مايرضيه ، فسافر الى زوريخ فقابلته خيبة الأمل ، وهو الذى أعطى على نفسه عهدين ، الأول بإبداع فن وأدب جديد والثانى بتأليف كتاب يلفت نظر الدنيا ويشغلها ، فاضطر الى أن يدرس الانجليزية بأجر قدره فرنك واحد - درهم - أربعة قروش - عشرة بنس - شلن إلا كسرا .

ولا ندرى كيف عاش وزوجته على هذه القيمة الزهيدة حتى ولو اشتغل طول ساعات يومه ، ولكنه تمكن أن يعيش وتمكن أن يبدأ تأليفه الأول وأن يسجل مذكرات عن الكتاب الثانى (أهل دبلن) The Dubliners ، ثم ينظم الشعر ، ولم يطب له المقام فى زوريخ فرحل عنها وسافر وزوجته الى تريستا وبولافى مستهل سنة ١٩٠٥.

ومن ذلك الوقت بدأت محنته فى محاولة طبع « أهل دبلن » فى بيت من بيوت النشر الانجليزية ، وقد دامت بضع سنين ، وبين أيدى مؤرخى حياته وأدبه عشرات المكاتيب الخاصة التى حررها فى تلك الفترة ، وهى تتمايز بأسلوب رفيع خاص به ، فإن أدبه لم يكن مقصوراً على كتبه ، بل كان البيان العالى ملكة له ومذهباً فى كل مايكتبه ، وهذه المكاتيب تلقى شعاعاً هادياً على خلقه وماتحلّى به من أدب نفسى وصبر وتجمل وثبات وقوة إرادة ووحدة قصد .

وأخذ يكتب قصصاً قصيرة ويعد مناظر لملاعب الأوبرا ليستعين بإنتاجه على مشقات الحياة وزيادة فى دخله الضئيل ، واستدعى أخاه ستانسلاوس من وطنه ، لا ليؤنسه ولا ليخفف عبء تدبير المنزل عن زوجته التى كانت تحمل طفلها الأول «جورجيو» – ولكن ليوجد جو مدينة دبلن ، الجو البلدى واللغوى والروحى ليعينه على تأليفه . وعلى الرغم من صداقة « فرانسيني برونى » الأديب ومسرات حياة الأسرة وسعادة المولود الجديد وإيناس أخيه ، فإنه لم يطق الإقامة فى تريستا وبولا أكثر من أربع سنوات ، (وكان فى سنة ١٩٠٦ قد ألهم فكرة عولس وأخذ يجمع لها) فنزح الى روما .

ولعل المدينة الخالدة كما كانوا يسمونها فى عصره قد جذبته

إليها بفنونها وجوها وقصورها ومتاحفها وآثارها ، وذكرياتها واطمئنانه الى العيش فيها وهو طليق من قيودها المذهبية فقبل العمل فى مصرف إيطالى فى وظيفة كاتب بلغتهم كاتب حسابات بمرتب قدره عشرة جنيهات ، وفى تلك الفترة من الحياة (تخيل حياة ثلاثة أشخاص وطفل وكلهم غرباء بعشرة جنيهات مشاهرة !) اضطر الى ترقيع سراويله (بنطلون) حتى لايستطيع أن يخلع سترته لئلا تظهر مرقعة ، فانظر الى العجب من أن جيمس جويس لبس مرقعة ولم يكن صوفياً مسلماً وهذا من أحكام القدر !

وكان دائب البحث عن مقهى حسن ومطعم له قيمته لأنه كان يقول المقهى قاعة استقبال لمن لا صالون له ، وأخذ يبحث من جديد عن تلاميذ ليأخذوا عنه دروسه الخاصة ، (ما كان أسعد هؤلاء التلاميذ !) .

ثم بدلاً من أن يبكى على مصائبه ، كان يضحك ويسخر (وهذا صمامة الأمان لأمثاله وإلا جنوا أو انتحروا) ، وكان يعيش ويعمل ويمرح كأنه واثق من النجاح ، ثم اتفق مع أخيه استانسلاوس على البقاء بمفرده فى تريستا ، فبقى وصار فيما بعد البروفسور استانسلاوس الشهير ، ولكن مظاهر الحياة الرومانية

فى عاصمة ايطاليا الحديثة لم تقدح زناد فكر ولم تلهمه جديداً ، وكان يسخر من تمثال الظبى المرمرى المصنوع « لناثنيل هوثورن » المؤلف الأمريكى صاحب كتاب المكتوب القرمزى .

ثم أخذت الوحدة والعزلة تلحان عليه وتشعرانه بالقنوط ، وجذبته باريس من جديد فرحل اليها ، وبدأ مكاتباته مع الناشرين عن كتاب أهل دبلين من جديد واستمرت سبعة أشهر غير السنوات الغابرة من سنة ١٩٠٤ ، ويسجلون أنه ذكر عولس لأول مرة ، ولكنه لم يكشف القناع عن غير الاسم ، وهذا هو الكتاب الذى أشهره فى العالم كله بعد ذلك بخمس عشرة عاماً ، وقد ورد اسم الكتاب فى خطاب بعث به الى أخيه استانسلاوس تاريخه ١٩٠٦/٩/٣٠ .

نرجع الى حياة جويس الواقعية ، فإنه تنقل من دبلن الى باريس ، ثم عاد أدراجه الى دبلن ، ونزح منها الى زوريخ فتريستا ثم الى بولا فروما ، وكان من بدء شبابه يعانى مرضاً فى الأسنان ، وآخر فى العينين ، وتحمل عشر عمليات جراحية فى إبصاره ، واستمر على الرغم من هذه النكبات فى عمله حتى أخرج الكتب الآتية على مدى خمس وعشرين سنة ، وهى « موسيقى الحجرات » و« أخبار أهل دبلن » و« وصف حياة الفنان فى شبابه » وكان

يزمع أن يجعله مؤلفاً من آلاف الصحف ، ثم كتاب « المنفيين» ، ثم عمله الخالد وهو موضوع هذا البحث « عولس » ، وقد سبقه ديوان شعر بعنوان قصائد ، كل منها بقرش وختم كتبه بكتاب « فينجاوس ويك» (انظر صحيفة ٢٦ من عدد أكتوبر سنة ١٩٤٦ من مجلة ورلد رفيو) ، وقد دامت هذه الأعمال من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٣٨ أى جيلا كاملاً ، وتوفى بعد الكتاب بثلاث أو أربع سنوات ، وكلها كتب عظيمة الشأن غير أن سيدها ورئيسها وأفضلها وأقدرها وأبهرها وأشهرها كتاب « عولس » .

وعندما أستعرض فى ذهنى صورة المؤلف الذاتية وقوته الذهنية ازداد اعتقاداً أنه كان مسوقاً مرغماً على عمله ، وكأنه يساق بسياط يتلذذ بوقعها على بدنه ، وأنه بمثابة شخص ملبوس ومسكون ومملوك لروح من الجن تارة تعلوه هذه الروح وتدفعه وطوراً يعلوها ويركبها ويدفعها ، ولكنهما لايفترقان ولا يعصى أحدهما الآخر ولا يسعى فى الخلاص من صاحبه ، وهذا العفريت من الجن أو الروح المحركة لجويس - وهو أشبه بأفراد الجن التى ذكرت فى أساطير شعراء العرب أنها ساكنة أرض عبقر وأن لكل شاعر من فحولهم صاحباً منها - مازال يسخره ويحتال عليه تارة

بالحسنى ، وطوراً بالخشونة ، ويقلقه ويؤرقه حتى يكمل إنتاجه ، ولا يمنحه أجازة ولا يجود عليه براحة مرضية ، ولا تأخذه عليه شفقة ، كأنه يعلم بأن هذا الإنس النابغ سيعيش العمر الكافى لهذا الانتاج، حتى إذا فرغ منه ، انطفأ نور عينيه وسراج حياته ، فودع الحياة فى حفلة صاخبة يرقص فيها رقصة أشبه برقص الجن أدهشت من رآها فى عيد ميلاده الأخير ، بعد أن غنى وأنشد أغانى ايرلاندية كأنه يودع بها أسرته وحياته ووطنه .

وطالما ساءلت نفسى متجاهلا ومتصنعاً الدهشة أهذا الأدب وهذا الفن من نثر وشعر يستحق كل ما قاساه مؤلفه فى سبيله فى دنيا لاهية ساهية ناسية مشغولة عنه وعن أمثاله بالماديات والملذات والسخافات وتوافه الأمور ، معرضة عن هؤلاء الضحايا ومتربصة مترصدة لاستغلالهم عندما ينضجون ويصبحون صالحين لافتراسها؟!

فأجبت على سؤال نفسى أى نعم بلى ! وأكثر من ذلك ، لأن إنتاج هذا العبقرى وظيفة ضرورية للمجتمع ، النبوة والرسالة والشاعرية العظمى ، والخطابة والقيادة العليا ، والاختراع والاكتشاف ، كل هذه ضرورات حيوية للإنسانية ، لذا يتم إنتاج

النابغ ولو فى غفلة منه ومن عصره ومن قومه ، ويتم ازدهار إنتاجه ولو بعد جيله وزمانه ، ولكن لحسن حظ هذا الجيل أن الغافلين يتنبهون فى أوربا وفى بعض بلاد الشرق قبيل النهاية ولو بقليل أو بعدها بقليل ، والفرق بين الشرق والغرب أن تنبه الشرق كصحو السكران يتلوه الخمار ثم الخمود والنوم والنسيان، أما فى الغرب فيبقى التنبّه طويلا والاهتمام مستمراً .

إن حياة جيمس جويس نفسها تعد ملحمة فى ذاتها واختيار اسم عولس لهذا الكتاب هو نفسه فأل يحدوه التوفيق ، لأن حياة جويس أشبه بحياة عولس بطل الأوديسة ، وأحداث تلك الحياة كالتى وقعت لذلك البطل القديم ، غير أن عولس ظفر بهوميروس يرويها عنه وينمقها ويوشى أطرافها ، أما جويس فسجل منها ما استطاع تسجيله بقلمه على لسان غيره ، وجعل نصيبه نصيب فرد فى مجموع ، ولم يستأثر بالكتاب كغيره من المغرورين والمشغولين بأنفسهم ، وانما روى ماروى فى سياق الملحمة على مقتضى الحال والمقام .

وأعتقد أن ترجمة هربرت جورمن لجويس ناقصة وليدة العجلة، كأن مؤلفها شعر بدنو أجل بطله فأراد أن يسره قبل

مغادرة الدنيا ، ولكنها كافية ولا بأس بها، وقد كتبت فى حياته بقلم صديقه ، ولابد أن جويس اطلع عليها وادنى قلمه منها بالزيادة والنقص ، لأن فيها لمحات ولمعات لا ريب فى أنها من قلم صاحب الشأن ، وقد تمت تأليفاً وطبعاً فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٩ بعد عيد ميلاده بتسعة أشهر عقب نشر آخر كتبه .

ويبدو لى أن هذه الترجمة ليست الأولى والأخيرة وأن الترجمة الصحيحة الوافية يجب أن يكتبها أشخاص وهم جورمان نفسه ونورا جويس زوجته ، وازرا باوند صديقه وكاتم سره ، وبول ليون وشقيقه استانسلاوس جويس والفرد بورجان والسيده بيتش (Beach) التى نشرت كتابه عولس عشر مرات ، واستهدفت بعملها ومالها لأخطار المصادرة والإحراق والاعدام ، وساعدت بمجهودها وثروتها على نقله الى اللغة الفرنسية ، وعاش جويس على مقربة منها خمس عشرة سنة وهى سنواته الأخيرة فى باريس ، ثم الدكتور ڤوجت طبيب العيون الذى عالجه أخيراً وهو حفيد كارل فوجت العالم البيولوجى العالمى شهرة والسويسرى وطناً .

مما لاشك فيه أن هربرت جورمن مؤرخ حياة جويس التقى بهؤلاء الأشخاص العشرة ، واجتمع بالحاضرين منهم وراسل

الغائبين ، واستقى كل مايريد معرفته من مصادره ، وقد يكون التجأ الى عشرات غيرهم بعد أن كان مرجعه الأكبر جويس نفسه وزوجته حتى وافق على ماورد بهذه الترجمة ، ولكن هناك ناحيات خفية من حياته لم تكتب أثناء وجوده ، وربما لاتكتب أثناء حياة زوجته ، ولا عبرة بما وصف به جورمن كتابه بأنه ترجمة نهائية ليكتفى بها جمهور القراء ، فهى لاتضع حداً للبحث فى ترجمته ، وهى فى الواقع مشبعة للرجل العادى الذى لايستطيع قراءة كتبه ، ودعاية كافية وافية بعيدة المدى لمن يستطيع محاولة القراءة.

ولكن هناك أسئلة يجب الجواب عليها وفراغ يتحتم امتلاؤه ، مثلا من النساء اللواتى عرفهن جويس فى ايرلندا والبلاد الأخرى غير زوجته وقريباته ؟ وماهى الكتب التى قرأها فى اللغات الثمانى عشرة التى كان يعرفها ؟ وفى أية فترة قرأ كلا منها ؟ وماهى التى تركت فى ذهنه أثراً أقوى من غيرها ؟ ومن هم الرجال الذين لقيهم وسعى اليهم أو سعوا اليه وكان لهم تأثير على حياته ؟ ومن الأشخاص الواقعيون الذين جعل منهم أبطال ملحمته ؟ ثم نماذج من كتابته الشخصية فى مذكراته ومكاتيبه أو مذكرات زوجته أو أخيه وطريقة عمله وتكوين أفكاره وتفصيل حياته فى باريس فى

الفترة الأخيرة ومراسلاته لأصدقائه وما تلقاه منهم ، ووصف علاقته بمعاصريه من الكتاب والأدباء والنقاد ، ومن هم أعداؤه الألداء فى ايرلندا وغيرها ؟ وكيف كانوا له ممن صورهم فى كتابه وممن لم يكترث لهم ، وطبعاً بعض هذه المسائل يدخل فيها تحليل مؤلفاته .

هذا مالم يؤن أوانه أو ماليس متيسراً لنا فى الوقت الحاضر ولا نفكر فيه بعد دراستنا لعولس ، وهو الكتاب المقصود لذاته بهذه الدراسة ولا يهمنا أن ندمج فى تلك الترجمة النموذجية التى نترقبها والدراسة الوافية لأدبه وفنه أن نسجل أقوال النقاد الذين احترقت أكبادهم غيظاً ، واصطكت أسنانهم غيرة وحسداً ولا سيما برنارد شو الذى أزوى مابين عينيه أنفة وحشمة تصنعاً باسم الفضيلة والحمية والخوف على عفة النساء والفتيات والأغرار ، فهل من الرأى السديد فى فن الأدب والنقد أن يحبط هذا العمل الجليل من أجل النساء والأغرار .

وبعد ، فإن جويس لم يكتب كتبه ولا سيما عولس من أجل النساء والأغرار ، لأنهم لايفهمونه وبعض الذين فهموه أمثال شو ولورنس ذموه وخطأوه وفندوه وإن أعجبوا به فى دخيلة أنفسهم ، ولكنهم كتموا الاستحسان وأفشوا الاستهجان وجهروا به لأسباب

كثيرة ذكرنا بعضها فى موضعها ، ومن هنا لانظن تسجيل النقد مجدياً لأنه فورة أحدثها ظهور الكتاب وطلوع جويس عليهم بهذه القوة التى لم يعهدوها فى كاتب معاصر ، فمنهم من خشى الدولة والدين فمالأهما ، ومنهم من خاف على مكانته وشهرته ، فبدأ الكاتب بالمهاجمة فنطح الصخرة حتى أدمى قرنيه.

إن فن جويس فى كتابه وأدبه ، كشف عن مواهب شتى دلت على تنوع عبقريته وأخذها من منابع كثيرة ، فقد درس طباع الرجال والنساء وفهم مادرس وتعمق فى نفسيات الذكور والإناث ووقف على أسرارها ، حتى ظهر له أن كثيراً من الصفات المحمودة فى الرجال ، تكون مذمومة فى النساء ، كالكرم والشجاعة والهمة الى المراتب العالية والأمور الشاقة والنيات النائية والمطامع المتعددة، والعلة فى ذلك كون المرأة تميل بالطبع الى الشطط ومجاوزة الحد ، ودليله فى من تميل الى العبادة والنسك ، فإنها لاتقف فى ذلك عند حد ، بل تتمادى فيه حتى تتهوس وتتخيل فتدعى ، وفى من مالت الى الهوى فإنها تترك أباها وأمها أو زوجها وولدها، وتقبل تجرى فى أثر رجل لاتعرف من صفاته شيئاً سوى كونه ذكراً حتى تلقى بنفسها فى حمأة التهور والدعارة ، فكل ماكلفت به المرأة كانت فيه

أكثر تمادياً من الرجل ، والحامل لهن على هذا الشطط والغلو إنما هو معرفتها من نفسها أنها أقوى على اللذات من الرجال ، فزيادة طاقتها لذلك زادت فى تماديها فيه ، ومنه سرى فى غيره من الأطوار والشؤون والأحوال الطارئة وفى بعض الأمور الغريزية أيضا كالكلام والضحك والحركة ، ومما قل منه فيها فى بعض الأحوال ، فإنك تراه زائداً فى البعض الآخر زيادة فوق القياس ، ومثال هذا أخلاق بطلات عولس (يوليسيز) وأكبرهن نصيباً ومظهراً مولى بلوم حليلة البطل وخليلة كثير من الرجال، وفى مناجاتها فى ختام الكتاب برهان ذلك ، وكذلك فيما كشف عن طباع نساء أخريات مثل مسز برين فى الدراسة التى تبدأ ص ٤٠٨ الى ٥٧٠ ، ومسز بلنجهام ٠

ولم تكن حملته على بعض القسس المترهبين بدعاً ولا افتتاناً ولا انفرد بها فيما وضعه الكتاب ووصفوه قديماً وحديثاً فى كتبهم ، فإن رئيس بعض الأديرة لايزال يحاول إذلال مرؤوسيه وإخضاعهم له ، وهم لايزالون مدمدمين عليه شاكين منه ، وبينه وبين رؤساء الأديار الأخرى من الحسد والمنافسة ، مابين وزراء الدول وأكثرهم ينال الرياسة بالتملق للأمير الحاكم أو البطريرك أو البابا ٠

وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء ، فقد شهدنا أحوال التكايا والصوامع فى عهد تركيا قديماً بين الدراويش وأمثالهم ، وفى حالة جويس بذاته ، فقد وقع عليه ذعر ومسه الضر من مسلك عميد كلية الجيزويت فقد أراد أن يخضعه ويذله ويجدع أنفه ويكسر كبرياءه ويشعره بالحرج وضرورة الهوان والطاعة والتسليم ، فأبى وثبتت فى قلبه كراهيته الطائفة وبغضها ومقتها والبعد عنها والحذر منها ومقاطعتها الى آخر لحظة فى حياته .

(١٠)

مجمل كتاب عولس

مرجعنا فى الكلام على الكتاب النسخة المطبوعة سراً ، ونشرت بباريس فى مايو سنة ١٩٣٠ وهى الطبعه الحادية عشرة .

والكتاب فى خمس وثلاثين وسبعمائة صفحة بالقطع المتوسط وليس مقسماً كتباً أو أبواباً أو فصولاً ، وليس له عناوين تهدى القارىء الى موضوعاته على ماجرت به عادة التبويب والتقسيم فى التاليف ، فوجب على القارىء أن يقرأه معتمداً على اجتهاده ، ولايوجد تناسب بين أجراء الكتاب البتة .

فأولها فى خمسين صفحة ، وبعضها فى خمسمائة صفحة ، وبعضها لايتجاوز صفحتين ، والمسرحية العظيمة فى مائة وستين صفحة تبدأ من ٤٠٨ وتنتهى فى ٥٧٠ وهى التى شبهها النقاد بالقسم الخاص بسياحة عولس بطل الأوديسة فى جزيرة الساحرة الداعرة سير سيه أو كيركيه ، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الكتاب منطو على ثلاثة أقسام ، الأول فى خمسين صفحة ، والثانى فى خمسمائة صفحة ، والثالث فى مائتى صفحة تقريباً .

القسم الأول : ليس مقدمة ولا تعريفاً ولا إلماماً بموضوع الكتاب ولا شخصياته ، ولكنه نوع من اللمحات واللمعات والمشهّيات والمشوقات ، وقد وصفه بعضهم بأنه طلسم الكتاب الذى وضعه المؤلف ليعوق القارىء الغبى أو العاجز أو الباحث عن السهولة واليسر فيرتد على أعقابه حتى لايزعم أنه قرأ عولس ويحتج بصعوبته وإبهامه وغموضه وانطوائه على الإلحاد ومجانبة الآداب والتعرض للسياسة وأقدار العظماء ، وفيه ذكر فريق من الأبطال وهم بك موليجان وستيفن ديدالوس ، شخص جويس نفسه ، وقد زعم بعض النقاد المقلدون الناقلون الذين لم يقرأوا الكتاب أنه اتخذ من ليوبولد بلوم أباً كان يبحث عنه بحث تليماك عن أبيه عولس ، وكلا الأمرين حديث خرافة وخرق ونزق وادعاء وتضليل ، ويكفى للتدليل على ذكر ماورد فى حق بلوم من المخزيات سواء فى سياق الكتاب أو فى المسرحية التى هو بطلها ، ولاسيما فى وصف سلوكه الشائن الشاذ مع النساء ، وعند توليته عمادة دبلن تهكماً وتتويجه ملكاً على الجزيرة سخرية وهزواً ، ثم انقلابه امرأة وولادته ثمانية أولاد ذكور ، وتقرير الأطباء فى حالة عقله وبدنه ، وسرد أمراضه الموروثة والمكسوبة ، وما بقى من المعايب التى لاننتقدها وسوّغ

ورودها لمقتضى أحوال التأليف العبقرى .

ولا جرم أن شيئاً من هذا لا ينطبق على عولس وتليماك ، فقد كان الأول مثال الرجولة والشهامة والدهاء وإصابه الفكر وأصالة الرأى ، كما كان ابنه تليماك نموذج الابن البار والولد المطيع المحب الذى خاض غمار الحياة الأخرى وعرض نفسه لألوان العذاب فى النار بحثاً عن أبيه فى هاديس .

ولا يجوز تحليل ذلك بالفرق بين القديم والحديث ، وإنما كون جويس العظيم الجليل الجميل النبيل الفذ العلم المفرد اتخذ اسم عولس ، وذكر بعض الأساطير الإغريقية وبعض الأسماء الواردة فى كتاب هومير ، مثل سيرسيه أو كيركيه فى المسرحية ، فلا يدل على شىء فقد ذكر فى صلب الكتاب والمسرحية مئات الأسماء للأقدمين والمحدثين أمثال شكسبير وابن رشد وموسى النبى وموسى ابن ميمون وبعض أسماء الأحياء والمعاصرين الذين كان بينهم وبين المؤلف دقة ثأر أو ضغينة مثل سفراء بريطانيا وقناصلها ، فقد جعل من بعضهم شرطيين فى مدينة الظلام Night - Town ، مقر الدعارة فى دبلين .

نرجع الى القسم الأول من الكتاب ومن ورد ذكرهم فيه ،

وموضع البرج المهجور على شاطىء البحر وزمن الحوادث التى وقعت فيه الثامنة صباحاً ، وأشخاصه غير من ذكرنا ، هينز الإنجليزى ، وبائعة اللبن الفلاحة السانجة ، وقد تنقل الحديث بينهم حتى تناول هاملت وذكريات وطنية واسم الزعيم أرثور جريفيث ، وبعض الهرطقة والإلحاد عرضاً ، ثم وصف التلاميذ والمدرسة التى كان ستيفن ديدالوس يعلم فيها ، ووصف ناظرها وسخافته ، وانتقل البطل الراوى الى شاطىء البحر وتحدث الى نفسه على طريقته الإيحائية فى مناجاة طويلة ، ومن هذه النبذة تبدأ فكرة الكتاب بالظهور وتنجلى غوامضه وتتجلى مواهب واضعه وغزارة مادته واتساع آفاقه .

ولايرد ذكر ليوبولد بلوم إلا فى القسم الثانى وأوله ص ٥٣ ، وقد غادر منزله فى الصباح وترك زوجته فى فراشها ليشترى لها كلية سمينة لتفطر عليها ، وهى امرأة نؤوم الضحى ستسفر فصول الكتاب عن صفاتها ونشأتها وأخلاقها ورقاعتها ، ويشارك ليوبولد بلوم زوجته الإفطار ويقدم اليها مكتوباً ورد بالبريد باسمها ، ولا يزيد مايتبادله وزوجته عن عشرات الكلمات ، بينا يعمل عقله الباطن فى استحضار الماضى وتكوين المستقبل واستعراض الخواطر

الطارئة ، وهذا يملأ عشرات الصفحات ويلذ للقارىء ويفيده ويثير إعجابه ويدهشه .

ثم يخرج بلوم مشغولاً بمكتوب ينتظره فى مكتب البريد من امرأة مجهولة قابلها مصادفة وأعطاها اسماً وعنواناً كاذبين لأنه متزوج ، ولا يخفى المؤلف أن بطل الكتاب بلوم مجرى أو نمسوى مهاجر فتهيج شجونه بقراءة المكتوب ، ثم يقصد الى صيدلى ليشترى لامرأته عطوراً وأدهاناً ، ثم يتخلص من أصحابه ليخلو بنفسه ، ويعيد تلاوة خطاب المرأة المجهولة ، ثم يفكر فى هملت ويظن أنه فتاة فى ثياب فتى لأن كل امرأة مثلته أتقنت تمثيله أكثر من الرجال ، ويذهب ذهن بلوم لاشتغاله بشهوته الى أن هملت إن لم يكن فتاة كان عنيناً لايصلح للزواج ، ولذا أهمل عروسه أوفليا ونصحها بدخول الدير فانتحرت بالغرق فى غدير .

ويذهب بلوم الى تشييع جنازة بادى دنجام أحد فقراء دبلين وهذا هو منظر الجنازة التى قال ناقد أو ناقدان إنه حل محل «هاديس» فى ملحمة هومير .

وهذا كلام بعيد ووهم وزعم وأخذ الأمور بظواهرها لأنه ليس فى الجنازة من عبرة الموت إلا انشغال المشيعين بأمورهم وحديثهم

ثم المراسم الدينية واختصار الصلاة وقلة عدد القساوسة لقلة المال المدفوع فى « دفنة » من الدرجة الثالثة ، ثم وصف الحنوطى أو رئيس الدفانين والحفارين وهؤلاء يكونون عادة مرحين أو يظهرون المرح ولا يبالون الموت لشدة اتصالهم به ، وهذه قطعة من الأدب الحديث الحى لايوجد لها مثيل (ص ٨٤ – ص ١١١) .

ثم يبدأ باب من ص ١١٢ – ص ١٤٣ فى نوع عجيب طريف من الأدب ، يمثل حياة صحيفة صباحية فى مدينة دبلن ويرفع الستار عن إدارتها وتحريرها وسياستها ومصادرها وأرباحها وخسائرها وحياة الكتاب والمنشئين فيها ، والباب نفسه مكتوب بلغة صحفية وأساليب مختلفة متباينة ليكون فى مجموعه صورة طبق الأصل للواقع شكلاً وموضوعاً حتى عنوانات النبذ التى تصدر عن الصحيفة ، مكتوبة بأحرف كبيرة تقليداً لما يتبع عادة وفعلاً فى تحرير الصحف وأنواع مقالاتها وإعلاناتها .

وتظهر شخصيات عدة لمحررين ومراسلين ومكاتبين ومتصلين بالإدارة والتحرير ، ومنهم بلوم وهو وكيل الاعلانات يتقاضى أجراً على مايجلب منها ، وفى الجريدة صفحة للوفيات بعد المواليد وحفلات الزواج وفيها عمود للأدب المنثور وآخر للشعر .

ولا يبالى جويس ذكر أسماء بعض أعيان السياسة والأدب ورجال الحكم بأسمائهم الحقيقية ليترك أثراً قوياً فى ذهن القارئين بأن مايبدعه موافق للواقع وحسب الحقيقة ، وناهيك بصعوبة التقليد فإنك تكتب صفحات جيدة متقنة إذا صنعت ذلك بقصد صحيح ونسبة صادقة ، وتعانى فى صفحة واحدة أو بضعة أسطر معاناة بالغة إذا شئت أن تقلد أو تختلق أو تلفق دون أن تنقل عن نموذج موجود ، والاختلاق والتلفيق نوع من الخلق والإبداع ومصدر الصعوبة ومرجعها تفسير الحياة بالمحاكاة المتقنة لا سردها ، والتفسير هو الفن الأدبى والسرد تاريخ لا أكثر ولا أقل .

وكل من يقرأ هذا الفصل بعد خمسين أو مائة سنة سوف يرى ويعلم ويدرك ماكانت عليه الصحافة الأيرلندية والانجليزية فى مستهل القرن العشرين ، وهذا يقوم مقام فصل مسهب فى دائرة المعارف أو مجلدات ضخمة من مجموعات هذه الصحف ، وهذا مصداق ما قلنا إن التفسير تخليد وتسجيل حياة العصر الحديث وجعل سائر شؤونه حتى البسائط فى عداد الشوامخ وطبعها بطابع الطريقة الاتباعية ، فلا يحتاج من يأتى بعده للكتابة فيها ، لأنه إمام الصناعة وشيخها ومقدمها وباقعتها . وهذا ينفى عنه ما زعمه

خصومه من « أن الكتاب لا بداية له ولا نهاية ، وأن فى الإمكان قراءته من أوله الى آخره أو من آخره الى أوله » إلى آخر ما زعموا وادعوا واختلقوا من ألوان الدجل والمخرقة التى يلجأ إليها الحاسد والحاقد أو من لم يقرأ الكتاب ، أو قرأ أوله ثم نكص على عقبيه عجزاً وحيرة وضجراً وغباء .

كذلك من قالوا بسوء نية « إن قصة عولس ليست قصة بالمعنى المألوف الذى تعوده الناس ، روعى فيها التسلسل الزمنى والتتابع المنطقى بل اختفى منها كل تقدير للزمن ، واختلطت حوادث الحاضر بالماضى » . وهذا مما يفخر به جويس ومما يفرح له مادحوه لأنه لم « يرغب فى المعنى المألوف الذى درج عليه الناس وتعودوه » بل رغب فى فتح جديد ولكن الأعداء اكتفوا باكتشاف هذه الواقعة «وحرروا بها محضرا» .

نرجع الى الفصل الخاص بالصحافة وقد قلنا إنه أدمج فيه أسماء بعض أعيان السياسة والعلم والأدب على حقيقتها ليزيد فى إقناع قراء المستقبل بصدق الصورة التى فسر بها الحياة الحديثة (ص ١٣٥) ، فذكر الأستاذ ماجنيس واومولوى و A.E العالم المتصوف والمصلح الاجتماعى الايرلندى المعاصر العالمى الشهرة

ومدام بلافتسكى الصوفية الروسية الشهيرة وأستاذة آنى بيزانت وطيلور فيتز جيبون قاضى قضاة الاستئناف وتيم هيلى خائن ايرلاندا الأكبر ومايلز وفورد وغيرهم ، وهذه عادة درج عليها جويس فى كتابه عن أهل دبلن ، فقد نسج الواقع على أنوال الخيال دون أن يفجعنا فى أحدهما ، لأن الواقع زهرة الخيال وثمرته والحياة نسيج سداه الواقع ولحمته الخيال ، صنعت منهما الطبيعة والانسان والأقدار رقعة واحدة تحير العقول ، فإنك ترى أمراً واقعاً تظنه خيالاً وترى خيالا قد يتضاءل الواقع فى جانبه .

دع عنك المصادفات التى تأتى أحياناً بالمضحك والفاجع وتمزج بينهما فيحار المشاهد والسامع والناظر بين القهقهة والبكاء ، وتلك نكات أحكمت الأقضية والأقدار صنعها وحبكت أطرافها وتاريخ العالم القديم والحديث حافل بها ، ويعجبنى من سانت جون ارڤين من كبار كتاب ايرلاندا الأحياء ومؤرخ لبارنل أعظم زعمائها وساستها أنه كان يعبر عن القوة العليا الحاكمة المسيطرة على الكون بوصف «المؤلف المسرحى البارع الماكر» ، لأن الحوادث كانت تبدو وهى واقعية لاشك فيها ومن صميم تاريخ ايرلاندا وانجلترا ولا دخل لأحد من أهل الدنيا فى سيرها وتتابعها كأنها من صنع

الخيال فى مأساة محبوكة الأطراف محكمة التنسيق بديعة السياق ، أمنية مؤلفها الوصول الى غاية معينة محددة من قبل ومعدة ومجهزة وهى ضياع ذلك الرجل الذى كافح وجاهد وصبر فى سبيل تحرير وطنه حتى صارت ايرلاندا من الاستقلال قاب قوسين وكلما دنا الغرض ، نأى لابفعل غلادستون أو مدام أوشى أو مورلى أو الكنيسة الكاثوليكية أو زوج الزانية ، بل بفعل القوة الخفية التى تسير الأمور حتى تنقلب الواقعة التاريخية قصة خيالية ويصير الخيال واقعة تاريخية .

وليس هنا مجال الإسهاب فى هذا الباب من عجائب الدنيا ولكن اكتفينا بالإلماع اليه لنرد على الذين عابوا على جويس مافعل وهم جد قاصرين ، لا عن تقليده وحسب ، بل عن فهمه وهو شيخ الطريقة ورئيسها وسيدها وأستاذها وكل مايصنعه يكون قانوناً وقاعدة يقاس عليها ، ولا يقيس هو على أحد لأنه هو الشارع والمقنن للفن والمقعد لقواعده .

وفى ص ١٣٦ و ١٣٧ (فى أثناء بناء الصحيفة) أورد جويس أمراً خطيراً له علاقة بتاريخ مصر الحديثة ، وهو تلخيص خطبة طنانة رنانة ألقاها المرحوم المبرور كيرهاردى مؤسس حزب العمال

(وهو اسكتلندى الجنس) فى خاتمة ليالى المؤتمر المصرى الذى عقد فى ٤ سبتمبر ١٩٠٩ بمدينة جنيف وكانت الخطبة فى البهو الكبير بفندق شامبيل بأعلى البلد نشرتها صحف العالم فى ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ سبتمبر ١٩٠٩ بنصوصها ولم يدخل عليها جويس إلا تعديلاً طفيفاً لايمس جوهرها وموضوعها ولكن ليجعلها تتسق وغايته وطريقته .

وقد نسبها الى جون طيلور تعقيباً على خطاب الاستاذ فيتزجيبون قال :

سيدى الرئيس سيداتى وسادتى

كان إعجابى عظيماً أثناء سماعى منذ برهة بتلك النصيحة الغالية التى أزجاها صديقى العلامة الجهبذ موجهاً فيها الحديث للشبيبة الايرلندية وقد خلب الخطيب لبى حتى تخيلت أننى انتقلت وأنا أصغى إليه الى بلاد بعيدة فى زمن سحيق متناه فى القدم ، أقصى مايكون عن عصرنا هذا ، وأننى وقفت على أرض مصر واستمعت الى خطاب أحد عظماء الكهنة ، يتحدث فيه الى نبى الله موسى فى شبابه ونضارة عمره قبل بعثته ورسالته .

(فلما وصل الخطيب الى هذه الكلمة أصنت السامعون وكأن

على رؤوسهم الطير وكفوا عن الهمس والتدخين) - وظهر لى وأحسست وشعرت أننى أسمع نبرات صوت الكاهن ترتفع الى العلا تحف بها العظمة والكبرياء والقداسة الخليقة بالمعانى التى تحتويها تلك الألفاظ . استمعت الى الألفاظ فى رنينها وجرسها ، ولكننى ألهمت معانيها إلهاماً .

[تعليق جويس : لقد ألهمت أن الطيبات الصالحات قد تفسد ، لأنه لا يفسد إلا الشيء الطيب والصالح أى المتناهى فى الطيبة والصلاح .

قاتلك الله ! هذا قول القديس أوجستين بنصّه وفصّه] .

الخطيب :

قال الكاهن المصرى الأعظم لموسى الفتى الإسرائيلى فى الهيكل المصرى «لماذا ترفضون أيها اليهود حضارتنا وتأبون أن تدخلوا فى ديننا وتتكلموا بلغتنا وما أنتم إلا قبيلة من رعاة رحالة ، ونحن أمة قوية ، ولا تملكون مدناً ولا بلداناً ولا ثروة . ومدننا تشبه بازدحامها وحركتها خلايا النحل ، وسفننا الموطأة ذات الطبقات الثلاث أو الأربع تخوض البحار ، محملة بأنواع البضائع وألوان الخيرات من أقصى شواطىء العالم المعروف إلى أقصاها ، وأنتم لم

تخرجوا ولم تبرزوا إلا من مخابىء الحياة البدائية وخفاياها ، ولم تنفضوا عنكم غبار الفطرة البدوية ، أما نحن فلنا حضارة وآداب وفنون ودين وكهنوت وتاريخ قديم وسياسة منظمة ودواوين مدونة وجيوش مجندة ومسلحة وعلوم ومعارف وأسرار عظمى .

[تعليق جويس : نيل . طفل . رجل . تمثال . صنم . على ضفة النيل تركع الأمهات ، تابوت من البردى . رجل حاذق مرن فى الصراع . نو قرون من الحجر ولحيته من الحجر وقلب من الحجر].

الخطيب :

« إنكم تعبدون صنماً ، رباً محدود المكان والزمان ، خامل الذكر ، أما معابدنا فملوكية ذات جلال وجمال شامخة البنيان حافلة بالأسرار وقد اتخذها إيزيس وأوزريس وهورس وآمون رع مقراً ومسكناً . نصيبكم العبودية والمسكنة والذل . ونصيبنا الرعد والبرق والبحار . إسرائيل ضعيفة قليلة العدد ، ومصر قوية كثيرة العدد جيوشها منصورة ، وأسلحتها ماضية واسمكم فعلة وعمال ميامة، وصفتكم متعطلون ومتجولون ، أما نحن فالدنيا ترجف لذكرنا ومهابتنا تتردد أصداؤها فى أقطار العالم قاطبة .

[تعليق جويس : وتجشأ الكاهن الأكبر جشاءة الجوع ، فاعترضت كلامه ، فرفع صوته حتى تغلب عليها واخفاها] .

الخطيب :

ولكن ياسيداتى وسادتى ، لو أن موسى الفتى أصغى لخطبة الكاهن الأعظم ورضى برأيه فى الحياة وكان من هذا الرضى أن حنى موسى رأسه وثنى إرادته ووطأ روحه حيال هذا التأنيب الوقح لم يكن يستطيع أبداً أن ينقذ الشعب المختار أو ينجيهم من موطن الذل والعبودية ، وما كان ليتبع عمود السحاب فى النهار ولم يكن ليحظى بمخاطبة السيد الأعلى وسط لمع البروق وقصف الرعود بأرفع ذروة فى طور سيناء ولم يكن لينحدر بعد ذلك ونور الوحى يشع من وجهه حاملاً بين يديه ألواح الشريعة « محفورة بلسان ذلك الخارج على القانون » .

ثم صمت الخطيب ، وكأنه استطاب صمت المستمعين وتلذذ بسكوتهم كالسكوت الذى يسبق العاصفة .

[تعليق جويس : هذه هى الخطابة]

أما صلة هذه النبذة بمصر فأصلها الخطبة الطنانة التى ألقاها كيرهاردى فى فندق شامبل بمحضر ومسمع من مئات

المصريين والأوروبيين وفيهم الزعماء والساسة والكتاب والصحفيون.

فقد ألقى هاردى زعيم العمال فى مساء ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٩ بجنيف هذه الخطبة بنصها فى صورة نصح وبشرى زفها الى شباب مصر يقصد الى أن لايطأطئوا رؤوسهم أمام المستعمرين الانجليز الذين يشبهون فى العصر الحديث دولة المصريين القدماء فى قوتهم وجبروتهم وثقتهم بأنفسهم ، وتعييرهم المصريين فى زماننا هذا بأنهم ضعفاء وفقراء وفلاحون ومرضى وجهلاء وأنصاف متمدينين وأنهم هم « الأنجلوسكسون » ذوو بأس شديد وجبروت وأساطيل وجيوش ودين عتيق وتجارة وسفن وثروات طائلة .... إلخ.

كما كانت عظمة المصريين الأقدمين ، ويقول هاردى « فلو أنكم أيها المصريون (مع أنكم أصحاب أعظم حضارة) أصغيتم الى كاهنهم الأكبر سواء أكان كرومر أو غلادستون أو ادوارد جراى (وهم عجول ذلك الزمن سنة ١٩٠٩) فلن تصلوا الى شىء من الحرية والاستقلال والسعادة ، ولا نجاة لكم إلا فى الاقتداء بالخطة التى سلكها موسى للخلاص بشعبه قديماً » .

وضرب المثل على لسان كيرهاردى للمصريين المجتمعين فى

جنيف فى مؤتمر سياسى يطالبون بحقوقهم والواقعة المروية وقعت فى وطنهم من قديم ، أعظم أثراً وأنسب موضعاً وموضوعاً وظرفاً وملابسة من توجيه هذا النصح لشباب ايرلاندا ، لأن الخطبة ألقاها كيرهاردى فعلاً على شبان المصريين وهو وحده صاحب الفكرة ، وناقلها الى جويس صديقاه توم كيتل وهازلتون عضوا البرلمان من الحزب الوطنى الايرلندى وكانا حاضرين هذا الاحتفال بجنيف وسمعا الى خطاب هاردى ورأياه وكان توم كيتل صديق جويس وذكره فى كتاب يوليسيز ، وكان مرموقاً ومموقاً ومنتظراً أن يخلف بارنل شهيد ايرلندا وضحية انجلترا لولا أن عاجلته المنية وهو يحارب في صفوف الانجليز عن الحرية فى الحرب الأولى .

ولايسعنا أن نختم هذه الكلمة دون أن نذكر ماجاء فى القرآن عن هذا الموضوع بنصه مما يدل على أزلية البحث وأبديته ، وأن جيمس جويس لم يكن لاعباً ولا لاهياً ولا مضطرباً ولا مخبولاً ولا متجنياً على الدين والآداب ، بل كان بطلاً واعياً وعبقرياً ناضجاً ينشد الحقيقة وهو ضالة العظماء أمثاله ويلتقطها أنّى وجدها .

قال سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء :

« قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين .

وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذن وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنُها علىَّ أن عَبدت بنى إسرائيل » ١٨ -٢٢ الشعراء .

وقال فى سورة القصص :

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » ٤ - ٦ القصص .

ففى الآية الأولى مراجع لحديث الكاهن الأعظم وموسى الفتى ولكنه جاء فى كتابنا المنزل على لسان فرعون ووقعه أعظم لأن موسى نشأ فى بيت فرعون وتربى بأمره وتحت نظره ، ووقعها أعظم لأن فرعون يذكره بجريمته ليزيد فى إذلاله ، وفى الآية رد موسى على فرعون وليس كلام الكاهن حواراً بينه وبين موسى ليظهر رأيه، وفى الآية الثانية وصف مظالم الفراعنة لشعب موسى وتبشير للضعفاء والمساكين (الفعلة والمتعطلين) بأنهم يكونون أئمة وارثين

متمكنين من الأرض ، وعقوبة فرعون على مافعل بهؤلاء الضعفاء .

ومن صفحة ١٤٤ ينفرد بلوم بنفسه بعد أن خرج من إدارة الجريدة الصباحية ويستسلم لخواطره سائراً على قدميه سبهللاً ومتخلياً عن عنان روحه وعقله ، فيمر بمصنع الحلوى المتعهد بالتوريد لبلاط ملك بريطانيا القديم ، فيذكر اللوزنج وأعين النساء التى تشبهه ، فيقابله شاب من جمعية الشبان المسيحيين ، ولاندرى ما الذى أذكر بلوم بالدماء ، ولعله الأحرف الثلاثة الأولى من اسمه فيرد على خاطره دم الحمل ودم الضحايا ، وحاجة الرب لدم الضحايا وإهراق الدم عند الميلاد من الأم ومن العذراء عند الزفاف، وذبح الخراف عند وضع أساس المبانى ، والتبشير بالنبى اليجاه وقرب ظهوره ، والدكتور جون اسكندر داوى معيد عهد صهيون فى الهيكل .

ويلمح وجه أخت ديدالوس (سيمون ديدالوس والد ستيفن) وهى أخت جويس فى الحقيقة ، جاءت تنتظر أباها ، لعله يبيع بعض المتاع ليواجه نفقات البيت ، فقد كثرت الأسرة ونما عددها خمسة عشر طفلاً فى كل عام يولد لهم مولود جديد ، ومنذ ذهبت الأم وتفككت روابط العيلة تهدم البيت .

ثم نظر الى ماء البحر فإذا طيور الماء تهوى ، فألقى إليها بشيء لا تأكله فلم تخدع فوصف إدراكها وغريزتها وعدم انخداعها والانسان قد يخدع والسمك يخدع والجرذان تخدع والأسود تخدع حتى الذئاب والثعالب تقع فى الأفخاخ ، إلا طيور البحر فإنها لاتخدع ، ومن هنا تذكر أن كل حيوان يحتفظ بطعم غذائه فيتذوقه أكله، إلا السمك الذى يتربى فى الماء الملح ، فإن لحمه لايكون ملحاً بل غريضاً.

ثم انتقل ذهنه الى عمله ، وهو الترويج للبضائع بالإعلان والترويج عند التجار للإعلان ، ثم وصف حياة عمال المجارى ، كيف يمحو مايكتب محواً تاماً ، لابد له من دواء جديد ظهر فى قنينتين يمحو كل ما كتب محواً تاماً مطلقاً ، أداة صالحة للمزورين ولكنها تباع باسم صاحبها كانسيل .

وخطر له اجتماع الماسون فى محافلهم ، والماسونية هى اليهودية هى اليهود هى صهيون ألفاظها ومراسمها رموزها ودرجاتها ، وقد توطنت فى اسكتلاندا والملوك ماسون ، إن الإنجليز هم اليهود واليهود هم الإنجليز ، ثم التقى بمسز بيرين ، إحدى صواحب زوجته فقطعت عليه تيار خواطره فسألته عن زوجته ،

وسألت عن سبب لبسه الحداد ، فتداركها وقال كنت فى تشييع جنازة صاحبى دنجام ، لقد مات فجأة ، وتكلمت هى عن زوجها واشتغاله بقانون القذف ، وطاب لها أن تتكلم عن زوجها فقالت إنه تيقظ بعد نصف الليل وأيقظنى لأنه رأى رؤيا مرعبة، وأنه رأى الواحد الأسبانى صاعداً سلالم البيت ، وفى الصباح جاءه التفسير، وهو هذا الخطاب المفتوح وفيه فضيحة زوجى فعزم أن يقاضى صاحبه ويطلب تعويضاً قدره ١٠ آلاف جنيه ، وأن زوجها سجن يوماً من الأيام ، وأخذت تلك الزوجة تطيل الحديث وتذكر A.E ذلك المصلح الاجتماعى العظيم (وهو الاستاذ جورج رسل) وقد سعدت بلقائه والتحدث إليه .

من فضلك أخبرنى يابلوم ما نوع عطر زوجتك ؟ وأخبرنى من خلق الدنيا (لاحظ سرعة الانتقال تدرك سرعة الخواطر وكيف تتولد هذه الأسئلة فى العقل وتثب عليك وأنت لاتفكر فيها) إن محاولاتى الأدبية نالت رضا مستر جورج رسل ، لا وقت عندى لتسريح شعرى وترجيله وتصفيفه كما يصنع النساء ، لأنى أشرب الشاى العكر وبيدى ديوان شعر مسكينة مسز بيورفوا زوجها مسيحى متوديست (متزمت متحرج) ، والتحرج فى الدين جنون وهوس لا

يأكل إلا كعك الزعفران مغموساً باللبن والصودا وأمامه ساعة تدق الثوانى لأنه يمضغ اثنتين وثلاثين مضغة (بعدد الأسنان) فى الدقيقة الواحدة ، ولكنه مستند الى قريب له فى حكومة دبلن وترضع أولادها عاماً بعد عام .

إنى لا آخذ إلا قطعة سكر واحدة فى فنجان الشاى ، وانتقلت مسز بيرن الى الولادة العسرة (وسيأتى وصفها بالتفصيل والمستشفى والأطباء والممرضات فى ص ٣٦٧ ومابعدها وهو من أبلغ ماكتب فى اللغات الأوروبية) أما مسز ثورنتون الداية فلا يعلى عليها مع شيخوختها ، يالها من روح طيبة صالحة ،ولكن النساء يهملن دفع أجور الولادة أشهراً . الجمهور ناكر للجميل والأطباء إنسانيون .

وتخلص بلوم من مسز بيرن ، وسار فى طريقه يتبع خواطره، فمر بباب البرلمان الايرلندى ويجنود يسيرون على خطوة الأوز ، وتمثال توماس مور ، وجوزيف شمبرلين نال درجته من كلية ترنيتى واستثمر ماله ، حرب البوير ، هتاف ثلاثا « لدى ويت » القائد المظفر سنشنق شمبرلين على شجرة تفاح ، من هو الذى أشعل نار الحرب ؟ وباع السلاح للبوير ليغتنى ؟ . آه استقلال ايرلاندا -

الحركة الوطنية – الجمعيات السرية – جيمس ستيفن شيخهم وصاحب الفكرة اللامعة – شُعب ذات عشرة أعضاء – كل عضو لايعرف صاحبه ، وقد ساعدته بنت تركناى من ريتشموند ، فنزل فى فندق بكنجهام بالاس تحت أعين أعدائه وأنوفهم ولم يعرفوه . جاريبالدى لابد أن تفتنك أخبار هؤلاء الأبطال ، بارنل ، ارثور جريفيث وهو حصيف وعميق التفكير ، يحسن التدبير ولكنه لايؤثر فى الجماهير .

ثم ذبلت ابتسامة بلوم ، وغيم على الشمس سحاب كثيف حتى حجبها ، وعربات الترام تذهب وتجىء غادية رائحة ، صاخبة بعجلاتها – كلمات لانفع فيها – الأشياء تسير على وتيرة واحدة لاتغيير ولا تبديل – ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة وشرازم من الشرطة تخرج للنوبة وتعود – وهذان الوغدان من أفرادها يتسكعان ، وجثة دنجام نقلت فى عربة الموتى ومينا بيورفوا راقدة فى فراشها ببطن منتفخة ، تتألم وتعض الثياب فى انتظار مولود جديد ، فى كل ثانية يولد طفل فى أى مكان من العالم ، أحسب العدد ، ونفس تموت فى كل ثانية ، وقد مضى خمس دقائق مذ كنت أطعم طيور البحر ، ثلاثمائة ابتعلتهم الأرض ، وثلثمائة

تنفسوا وصاحوا وغسلت أيدى الدايات أبدانهم من دماء المشيمة وتمزيق أرحام أمهاتهم ، كلهم يغسلون بدم الحمل الذى يصيح «ماء ماء » زحمة تملأ البلد قادمة وزحمة تملأ البلد ذاهبة . الى أين؟ فى الطريق فى البيوت ... صفوف من البيوت - شوارع أميال بل فراسخ من الأفاريز والطوارات والأرصفة . آجر وأحجار وأيد مختلفة ومتعددة ، هذا المالك ، وذلك المالك الأغنى (لاند لورد) لا يموت أحدهما لأن من مات من جنسهم يخلفه آخر بسرعة فائقة ، لأنه كان ينتظر نعليه الفارغين ليثب فيهما بقدميه الحافيتين . يدفعون الذهب ثمناً للأرض والبيت ، ومايزال عندهم ذهب كثير ، إنهم يحصلون على الذهب بالاحتيال والخديعة ، بأية طريقة ماعدا الطريقة الشريفة الوحيدة التى لايقربونها لأنها لاتجلب الذهب ، أكوام من الذهب مكدسة فى المدن تستجد وتختفى جيلاً بعد جيل ، أهرام من الرمال بنيت على الخبز والبصل ، سخرة عبيد الفرعون ، كما شاد رقيق الصين حائطها الكبير، سور الصين ، تصور الرقيق، وكذلك بنيت بابل بأيدى العبيد ، وما تزال منها أحجار كبيرة جاثمة وبروج مستديرة وبقايا وأنقاض وضواحى منبطحة فى الوادى، وبيوت أخرى كالعراهين (عش الغراب) بنيت فى لحظة عين بالهواء ،

بالنسيم ليقضى فيها صاحبها سواد الليل . لا أحد يعد شيئاً .

هذه أسوأ ساعة فى النهار ، ساعة الغسق قبيل الغروب تهبط الحيوية وينزل الظلام ، راكدة وقاتمة – أبغض هذه الساعة . أشعر كأننى قد أُكلتُ ثم لفظتُ من فم آكلى ، أكلنى الزمن ثم تقيأنى .

تحررت الشمس من الغمامة ، عاد النور ، بيت الراعى . مدير الكلية ، نافذة ولتر ساكسون ، بجوارها مرّ جون هوارد بارنل ، شقيق شارلس ستيوارت بارنل شقيقه الأكبر ، ها هو الأخ الشقيق ، صور البطل الراحل ، قد تفكر فى شخص مئات المرات ولا تراه ، هذه مصادفة ، وجهه يذكر بالأرواح التى تظهر بعد موت نويها ، يسير كأنه فى سبات عميق ، لا أحد يعرفه ، لابد أنه ذاهب الى اجتماع مجلس البلدية ، لم يضع على صدره شعار الرياسة منذ وليها ، وكان سلفه شارلى بولجر على جواد أصهب ، وعلى رأسه قبعة عالية ، منتفخ الأوداج حليق الشعر معطّر ، مزين مزوق ، يعطى المنصب حقه .

أنظر الى مشية الأخ الشقيق ، مشية الرجل الغارق فى حزن عميق ، الواله المحسور الثاكل اليتيم ، قد أكله الهم والأسى لقد أكل بيضه فاسدة ، جفون زرقاء منتفخة ، كأنه شبح من عالم الخفاء ،

إننى أتألم شقيق الرجل العظيم يبدو جميلا على جواد المدينة ، الحصان الرسمى ، لعله ذاهب ليلعب طابقاً من الشطرنج قبل الاجتماع كان أخوه يستعمل الرجال رهائن ، آلات للغرض الأسمى وسائل للغاية المرجوة ، دعهم جميعاً يذهبوا فى البوتقة ، ولا يجرؤ أحدهم أن ينتقده بكلمة ، كلهم يعرفونه حق المعرفة ، ولكن لا شجاعة لهم لأن دماءهم تتجمد فى عروقهم إذا نظر إلى أحدهم ، هذا هو السحر ، الاسم . كل منهم ملموس . كان بارنل يأكل قشر البرتقال فى البستان ، لما دخل سيمون ديدالوس البرلمان (هو والد جويس) كان يقول سيخرج بارنل من قبره ليجرنى من ذراعى خارجاً .

آه . جورج رسل وابنته على دراجة مزدوجة ، رأس ضخم ووجه ملتح ، لحية ودراجة وفتاة ، وهذه مصادفة ثانية إن الحوادث المقبلة تلقى ظلالها قبل وقوعها ، ألم تقل لى مسز بيرن إن محاولاتها الأدبية نالت رضاه .. منذ لحظة ..

A.E. ما معنى هذين الحرفين اللذين يرمز بهما لشخصه ؟ مع أنهما ليسا من اسمه ولا لقبه ، ربما كان بداية اسمين آخرين البرت ادوارد ، ارثور ادمون !!

ماذا كان يقول ايقوسيه عن أطراف الدنيا ؟ قرن الحشرة ؟ ملمسها ؟ نقطة حساسة فى العالم . قرن حشرة . أخطبوط ، شىء غامض علم سرى . تصوف - رمزية - هذا ما كان يقوله لابنته هو يتكلم وهى تصغى إليه ، كأنها تأكل حديثه أو تشربه ، هى كاتمة أسراره ، إنها تعينه فى إنتاجه الأدبى ، وما زال بلوم يصغى ويتسقط الكلمات من فم الكاتب العظيم ، إنه لا يأكل إلا الخضر والفاكهة ، لاينوق شواء أبداً ، إذا فعلت مثله فإن أعين تلك البقرة ستتابعك بنظرة حنان وعرفان الجميل لآخر الدنيا والى ما ورائها الى الأبد . يقال إن الامتناع عن اللحم أنفع وأجدى على صحة الانسان ، الهواء والماء لقد جربتهما فأعاننى على الحركة والفكر طول اليوم ، ولكننى أحلم طول الليل ، لم يسمون الطعام الذى قدموه لى شواء البندق ؟ يقولون فيجيناريان ونطاريان وفروطاريان. (آكل خضر . آكل بندق . آكل فاكهة) - فيخدعوك بأنك تأكل اللحم مادام الاسمان متشابهين ، نطستيك بفستيك ، جهل سخافة ! إنهم يطهون الطعام بالصودا فتسهر طول الليل جوارب الفتاة مدلاة على كواحلها ، إنى أبغض هذا ، بعيد عن الذوق السليم ، هؤلاء الأدباء يعيشون فى الأثير ، يحلمون وهم أيقاظ يتنقلون فى السحاب ،

يتبعون الرموز ، إنهم عباد الجمال فلن أدهش إذا كان هذا اللون من الطعام (الخضر والفاكهة والحليب) تولد الموجات الشعرية فى الدماغ ، فإنك إن عصرت عَرَق الشرطى الأيرلندى من قميصه فلا يخرج إلا رائحة الصلصة واليخنى والتوابل ، فلا تملك أن تعصر من مخه شطراً من بيت شعر ، وأنا لا أعرف الشعر أيضا ولا كيف يجىء ، لابد من حالة ذهنية خاصة ومزاج خاص .

ومر بلوم بمستودع المنسيات من أمتعة المسافرين ، ما أعجب ماينساه الناس من حوائجهم وقد تكون أهمها ؟ نقودهم وحليهم المرأة تنسى حقيبة يدها ، والرجل ساعته وحافظة نقوده ، أو أوراقه – فيم تشتغل أذهانهم ويستغرقهم حتى يتخلوا عن أعز وأغلى ما يحرصون عليه ؟

ومر بالمكان الذى كان فيه مغنى الموسيقى الوترية ، أسسه «بات كنسلا » قبل أن يبنى « هويتبريد » مطعمه « حساء للولد » .

وكان بلوم صبياً وتذكر أنه رأى يومئذ ثلاث طالبات من كلية بورتى ، لابسات سراويلات حمر تحت القمصان الطويلة ، كيف يمضى الزمن ؟ وما أسرع مروره ! كأنه يطير على أجنحة ! . الشراب والشاربون يضحكون ويمزحون ، ويقربون الكؤوس من

أنفاسهم ، يتلذذون برائحتها قبل أن يتجرعوها ، ضحك ومزاح ونكات وقهقهة وغمز بالأعين ، ودخان الطباق يعقد قباباً فى مغنى الموسيقى الوترية نجاح بات كنسلا بات مضموناً ، أين هو الآن ؟ لعله سائل يستجدى فى مكان ما ، ذلك العود ، ذلك الجنك الذى أطربنا بأنغامه وحرض شهيتنا للطعام ، أين صاحبه وضاربه وقبعته البيضاء وعينه الساجية وشاربه ؟ لقد كنت حينئذ سعيداً ، هل كنت سعيداً ، أم كنت أسعد من قبلها ؟ أم أنا أسعد الآن حالا؟ كنت فى الثامنة والعشرين وكانت هى فى الثالثة والعشرين (يقصد ماريون بلوم زوجته) عندما غادرنا لومبارد ستريت ، لقد تغيرت الأشياء بعد موت رودى (ابنه الذى مات طفلا) لايمكننى أن أستعيد الزمن كأنك تقبض على الريح أو الماء ، هل تعود بنفسك الى الماضى وكأنك تعيش كأنك تبدأ من جديد ، أتود ذلك ، ألست سعيداً فى بيتك؟ أيها الولد الشقى المتلاهى .

ثم يجىء وصف مطعم حديث إن الحرب والسلم ترجعان الى هضم الطعام عند الذى يعلنهما ، الأديان والدنادى والأوز فى عيد الميلاد . ومذابح الأبرياء ، كل واشرب وامرح وسوف تمتلىء عنابر المستشفيات وغرفها وأبهاؤها بالجرحى والقتلى ، الله خلق الطعام

والشيطان خلق الطهاة ، إن الأسماك البلهاء لا تتعلم شيئاً فى ألف عام ، إن خيرات الدنيا أكثر مما يحتاج إليه الناس ، ولكن الصيادين يردون الى البحر نصف مايصيدون من الأسماك وذوات الأصداف «البطلينوس» ليرفعوا أثمان النصف الآخر كما يفعل الزراع والتجار فى أمريكا فإنهم يحرقون البن والقطن خشية هبوط السعر لتوافر الطلب ، وهذا سبب غلاء البطارخ ، وكشك ألماز ، وكل الألطاف وأطايب الطعام ، كالجواهر غلاؤها ناشىء عن ندرتها ، الجميلات واللذائذ والأنبذة النادرة ، ولو كان الكافيار الروسى رخيصاً ما اشتراه أحد الناس ، يجرون وراء الغلاء يخدعون أنفسهم بجودته ، إذ لم يكن جيداً ما غلا ! .

والذى يشتريه « الإليت » خاصة الخاصة ، اللالىء قشدة القشدة ، وزبدة الزبدة ، يطلبون أطقمه خاصة ليثبتوا أنهم خاصة الخاصة ، وقلب البصلة وحشاشة الخسة ، رئيس الطباخين قبعته بيضاء كرئيس الكنيس ، زبانية ، سدنة هيكل البطون ، عبادة الكرش ، دين وصلاة للصحون والأطباق والألوان ، دجاجة بصلصة، بونابرت وكرب (كرنب) مجعد على طريقة دوقة يارما ، وبراغيث البحر تطهى حية ، وسمك يشوى وهو يلعب ليكون ألذ وأطعم فى

الأفواه .

سينما الحياة بأفراحها وأحزانها مسرحها الباطنى الذى يعكس المسرح الواعى وهو الذى يغذيه بالخواطر والدوافع والحوافز، حياة الانسان بالأقوال والأفعال بدون رقيب أو حاجز ، تحليل نفسانى يشهده القارىء من وراء غشاء شفاف ، نموذج ومناهج للعقول التى نلقى أصحابها ونعاشرهم ، كما ترى الأسماك سابحة فى حرز من الزجاج أو البلور ، تراها ترعى وتتلامس ، وهى لاتشعر أنك ترقب وترى ، وفى هذه الأثناء يحط الانسان أعباء الحياة عن كاهله ، ويتخلص من أحمالها وأثقالها مادام يفضى بها الى نفسه .

وقد وضع جويس عن كاهله حمل الحياة بعد أن عرضها وحللها على لسان بلوم وعشرات الأشخاص فى كتابه ، وحشد الحياة بأفراحها وملذاتها وأسرارها ومفاجآتها وفواجعها وغموضها وفضائحها وحسناتها وسيئاتها ، ورفع أقنعة النفاق عن أوجه الأبطال .

ومن صفحة ١٧٦ الى ٢٠٠ ، يتناول الحديث عن شكسبير وحياته الخاصة وأسرار تلك الحياة وشذوذه الخلقى وقد لمح له بعض

النقاد فيما كتبه عن أغنياته (سونيت) وعلاقته بزوجته ، وخيانتها الزوجية المزعومة وعدم حزنها على موته ، بله فرحها بموته واختصاصه إياها بالسرير ، وأن هملیت لم يكن سوى شكسبير نفسه، وأن لهفته وحيرته وتردده خاصة بحياته الزوجية ، وسبب انشغال جويس بحياة شكسبير راجع الى أنه التقى فى سويسرا بصاحب نظرية لورد رتلاند ، وأنه هو واضع المسرحيات التى نسبت لشكسبير ، فأراد جويس أن يفنده ويدحضه ويلزمه الحجة بإيجاد أسباب قوية لكل مسرحية وإثبات علاقتها بحياة المؤلف نفسه، أو مقتضيات حياة شكسبير نفسه ، مما لم يكن لدوق أو لورد رتلند صلة به .

ومن ٢٠٢ – ٢٢٥ كلام عن القساوسة والكهنة والاعترافات والغفران وأسرار النساء وسلطة الكهنوت على المتدينين .

ومن ٢٢٦ – ٢٤٥ كلام عن الكتب المحظورة لمخالفتها للحياء.

ومن ٢٤٥ – ٢٧٦ عود الى أخ بارنيل ووصف موكب حاكم ايرلاندا وذكر باتريك ألويسيس دنجام يتيم بدى دنجام الذى دفن أبوه فى هذا اليوم ، ثم ذكر مدموازيل دوس وهى شخصية شاب

جعله جويس فتاة وكان تلميذه فى باريس وأقرضه أجر السفر من باريس الى دبلين ليكون على مقربة من أمه المريضة ، وذكر بويلان عشيق ماريون زوجة ليوبولدبلوم ووصف ديدالوس (والد المؤلف) فى سكره وصحوه ، ثم استيفاء أخبار الآنسة دوس ووصف حياتها .

ومن ٢٨٠ الى ٣٣٠ فصل خاص بوصف مستر رمبولد قنصل بريطانيا بزوريخ ، وكان عدواً لدوداً لجويس ، وهنا نقده وتقريعه والتشنيع عليه وهجاؤه والسخرية منه ونسبته الى الحلاقة تارة والى صناعة الجلادين ، فقد صار جلاداً مأجوراً يتولى تنفيذ حكم الإعدام ويبقر البطون مبالغة فى تنفيذ العقوبة ، بعد أن تقوم بعض المخبولات من النسوة بتلقى الإفرازات التى تسيل منهم بحسب مايقرره الطب ، وقد جعلها مؤلف ألمانى منبتاً لشجرة المندراجور المسمومة الملعونة فى الأساطير و « دفاتر النسوان » ، وقد لقحت بها امرأة فولدت بنتاً مفرطة فى الجمال والرشاقة والجاذبية وانحلال الأخلاق ، كأن دمها خالط دم الشيطان .

وفى ص ٢٩٢ إحدى معجزات الأدب الحى الحديث وهو وصف إعدام مذنب وقد أسهب المؤلف وتوسع وأطال وأبدع وأعجز ، ونقل أحاديث الجماهير من الحاكم العام الى أحقر أفراد السوقة

رجالاً ونساء ، وكان مصرع المذنب فى دبلين طبعاً وتهمته أنه قتل عروسه قبل الزفاف (ص ٢٩٦) لسوء ظن أو خلاف طارىء كما يحدث فى كل البلاد وكل العصور ، والناس الذاهبون الى مثل هذه « الحفلات » العامة المثيرة للشعور يتغازلون ويتقارضون الثناء ، ويقضون حاجتهم ويلصقون بالنساء ، ويتواعدون ويتغامزون ، ويضحكون ويتبادلون النكات ويأكلون مما تزودوا به واتخذوه معهم لفترة اجتماعهم وانتظاهرهم فى تلك السوق المقبرية ، ولا يبالون ولا يتعظون بالمأساة فهى فى نظرهم فرجة عامة ، كانت تمنحها الحكومات للجماهير فى القرن التاسع عشر وما تزال فرنسا عليها فى هذا القرن كما كان الرومان يقدمون للشعب حفلات المصارعة وفيها تسيل الدماء ويقتل المغلوب ، ورجال الحكومة يتخذون أبهتهم واستعدادهم بكامل مظاهرهم ، وفى وسط هذه المعمعة يحار ابن دنجام لعجزه وأمه وأخوته اليتامى عن صرف « بوليسة » التأمين على حياة أبيه ، حادثه صغيرة من ألوف مثلها فى ظل الحادثة الكبرى .

والى هنا ينتهى النهار نهار الخميس ١٦ يونيو سنة ١٩٠٤ بمدينة دبلين ، وقد استغرق ٣٣٠ صفحة وهو نصف الكتاب .

ومن ص ٣٣١ يبدأ المساء ، ويبدأ بمناظر الأطفال والبنات على شاطىء البحر، وتدخل فى الحديث جرتى ماكدويل ووصفها والإعجاب بحسنها وأخلاقها . لون من الهوى العذرى وتمجيد الحب الطاهر البرىء وذكر أهلها ، وهذا الجزء من الكتاب يشبه كتاب زولا « الرؤيا » التى أهداها الى كريمة هاشيت ناشر كتب زولا، وصديقه الذى أعانه على طبع كتبه وإذاعتها وترويجها ، وكانت تحدياً من زولا لشانئيه وناقديه الذين زعموا أنه عاجز عن معالجة قصة فيها عفاف وطهر ونظافة خلقية لشدة ما انغمس فى ألوان كتبه التى عالجت الرذائل والمفاسد والجرائم والمظالم السائدة فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهذا أنقى جزء فى الكتاب فى نظر الأتقياء والمتزمتين ، وقد تجلت فيه مهارة جويس ونظافة عقله ، وبياض قلبه ونصوع فنه .

وفى بعض الأخبار أن جويس تعرف بعروسه التى عقد عليها فى ٤ يونيو ١٩٠٤ ، ولعل لهذا الحادث السعيد أثراً فى كتابة هذا الفصل ، وقد جمع جويس بين الغزل البرىء الطاهر وبين محادثة توأمين جميلين بريئين ، فهذه صفحات ملائكية ، وكان (ريجى وايلى) رجل أحلام تلك الفتانة ، تحبه وتتمنى زواجه ، وفى هذا

المنظر ثلاث فتيات سيسير كافرى وايدى بوردمان والبطلة أو عروس الكتاب جرتى ماكدويل نفسها وبين جاكى وجرتى منظر غرام (ص ٣٤٩) ، ولا نعرف إلا فى النهاية أن تلك الحسناء العجيبة الحسن ، عرجاء تهكم القدر ونقص الجمال مهما بلغ .

ومن ص ٣٥١ يعود بلوم الى الظهور بخواطره ومناجاته فى معايب النساء وذكر الطمث الذى يعاودهن مشاهرة ويعطل أزواجهن وما اتخذه اليهود فى شريعتهم فلا يقربون النساء فى تلك الفترة احتفاظاً بالنسل ، ويتحدث بلوم عن جرتى نفسها (ص ٣٥٣ - ٣٦٣) ، وهى مناجاة عجيبة خليقة بمناجاة زوجته وهى التى بزت الأولين والآخرين ، وبالجملة فإن الخمس وثلاثين صفحة من ٣٣١ الى ٣٦٥ تعد فى نظرى من أجمل ماجاء فى الكتاب .

ومن ٣٦٦ - ٤٠٧ الفصل الخاص بالولادة العسرة وهو آية فى البيان والعلم والإلمام بالحياة ، وقد انفرد جويس بأسلوب ومنهج جديدين ، وهو الذى خلا من أوله الى آخره من ترقيم أو تحديد أو بداية تعرف أو نهاية توصف ، صفحات من أجمل وأبلغ ماكتب كأنها مخطوطة ببنان فحول الكتاب فى القرن السادس عشر وما بعده، فلو أن راباليه ومونتنى ورشفوكو وباسكال وفولتير قد اجتمعوا

وتعاونوا « على استحالة هذه الفكرة » ، واجتمع إليهم كبار كتاب انجلترا أمثال تشارلس لام وثاكرين وديكنز ما تمكنوا من بلوغ ما بلغه جويس الذى جمع بين العلم والأدب والواقع والحقيقة والخيال ، وقد بلغ من اللغة وامتلاك زمامها بما لم يجاره أحد من هؤلاء مهما علا كعبه لمن عرف اللغة الانجليزية وعرف أعمال هؤلاء الكتاب كلهم.

ومن ٤٠٨ - ٥٧٠ تلك المسرحية العجيبة التى حشد فيها معظم أبطال الكتاب حتى بعض الملوك الذين ماتوا ، ومكان المسرحية الدرامية مدينة الليل "Nighttown" أو الحى الملعون فى دبلين حيث السهر والخمر واللهو الأثيم ومايتبعها ولا سيما فى منزل مسز بيلاكوهين ، وبطل الدرامة ليوبولد بلوم نفسه، ونعدها مركز الكتاب وقمته وسمته من حيث الفن المسرحى ومظهر جديد لإعجازه، يبدو فيها بلوم متسكعاً ثم مخموراً ثم مغازلاً ثم مهيناً ذليلاً فقد تحمل أعباء القبض عليه ، « يقبض عليه الشرطيان وهما القنصلان المكروهان من صميم قلب جويس » ثم يقدمانه للمحاكمة ، وتتوارد النساء اللواتى أخطأ الرجل فى حقهن ، ويعرضن أعماله على المحلفين ، ويحضر أطباء لتشخيص أمراضه العقلية والبدنية ،

ويتغير المنظر وإذا بلوم ينتخب عمدة البلد ، ويخطب ويخطب له ويتغنى بمدحه ويهتف باسمه ويكاد الجمهور يؤلهه ويحملونه على الأكتاف ويخلعون عليه الثوب القرمزى ، ويسمونه ملك ايرلاندا غير المتوج ، ثم ينقلبون عليه ويعود الى بيلا كوهين ، فتنقلب هى رجلا وينقلب امرأة وتعذبه وتنكل به ، وتضع على ظهره سرجاً وتعلوه كالمطية وتؤذيه فى بدنه وترغمه على أن يلبس ويتكلم ويشير بيديه ويتحرك ويخفض من صوته ويغض من بصره كالنساء الخليلات ، «وهذا المنظر وورود اسم سيرسيه أوكيركيه هو الذى دفع بالنقاد أن يقولوا بتقليد جويس للأوديسة لأن فى كتاب هومير جزيرة سيرسيه التى تسكنها امرأة تفتن الرجال ، ثم تسحرهم خنانيص ».

ثم يعود بلوم رجلا ويخرج من بيت بيلاكوهين ويلتقى بستيفن ديدالوس (جويس) ويقعان فريسة للشرطيين والحراس فى الساعات الأخيرة من الليل ، ولكن ينجيهما كورنى كيلهر ، رئيس الدفانين فى المقبرة التى دفن فيها بادى دنجام ، ينقذهما من مخالب الشرطة بدعابته ودورانه وحذقه ومعرفة أخلاق رجال البوليس ونفسيتهم ، ولكنه يعجز عن تفسير وجوده وهو الرجل المتعظ المهتم بالدفن والصلاة فى تلك البقعة الموبوءة بعد نصف الليل .

وإن الذين زعموا أن كتاب جويس تقليد للأوديسة لاعذر لهم إلا جهلهم بالكتاب نفسه ، فلا شك فى أن إطلاق اسم عولس على الكتاب قد أدخل فى وهمهم أنه نسجه على منواله ، فأخذوا يتصيدون المشابهات القريبة والبعيدة ليؤيدوا رأيهم، وكان يغنيهم أن يقرأوا الكتاب نفسه أو على الأقل جزءاً منه :

فأولا - زعموا أن منظر الجنازة والدفن بعد وفاة دنجام يحل محل هاديس فى الأوديسة ، مع أن تشييع الجنازة والدفن والصلاة على الميت مناظر ظاهرة للموت ، بينا أن هاديس هى الدار الآخرة عند الإغريق ، فيها الثواب والعقاب فى مكان ، وفيها أشباح العظماء وأرواحهم ، وقد وصل إليها تليماخوس ابن عولس يبحث عن أبيه وخرج منها ، وهى رمز لأن تليماخوس خاض غمار الموت ليلقى أباه، حياً أو ميتاً وهذا منتهى الوفاء والشجاعة منه ، وأى شىء من هذا فى منظر دفن دنجام غير عدم اكتراث المشيعين والقسيس والدفانين وحافرى القبور ومدير المقبرة نفسه لقلة مال المتوفى وبؤس الأرملة وأولادها ؟

وثانيا - زعموا أن ماريون بلوم المدعوة مولى تدليلا ، تمثل بنلوب قرينة عولس ، وبنلوب أميرة طاهرة تقية نقية عفيفة وفية ،

انتظرت زوجها عشر سنوات أنشأت أثناءها ابنهما تليماك أفضل تنشئة ولم تعارض فى رحلة ولدها للبحث عن والده وتحايلت مر وحدتها على الراغبين فى زواجها طوال تلك المدة ، حتى عاد زوجها وولدها وقضيا عليهم . وهى تلك التى غزلت خلال الأيام فى عشر سنين ، ونقضت غزلها خلال الليالى التماساً للفرج ، فأية صلة أو علاقة أو مشابهة بين هذه السيدة الجليلة وبين مولى بلوم الخليلة الفاسقة الفاجرة المستهترة ذات العشاق الذين لا عدد لهم ، وهى مغنية محترفة ، وقد فضحت نفسها فى مناجاتها الطويلة فى ختام الكتاب .

وأين الابن فى قصة بلوم ؟ لم يكن سوى طفل اسمه رودى مات بعد الأسابيع الأولى من حياته ، وهذه الوفاة المبكرة أقنعت بلوم بأنه لا يصلح للزواج والنسل ، فهجر زوجته فى الفراش ، وهذا الهجر أعانها على تهتكها واندفاعها فى سبيل السوء فأطاعت هواها .

وثالثا - زعموا أن ليوبولد اتخذ من ستيفن ديدالوس ولداً (مثل تليماك) بينما كان والد ستيفن على قيد الحياة وهو سيمون ديدالوس يعيش ويروح ويغدو فى نفس البلد ولم يرحل فى حرب ولم

يكن بطلاً ولا داهية كما كان عولس ، وكان سكيراً عربيداً وهما عيبان لا يؤديان الى المخاطرة والمغامرة والغيبة ليبحث الابن عن أبيه فيجده فى شخص ذلك المنحط الفاسد الفاسق الشاذ المعيب الذى جمع الى معايب أهل جنسه الغريب معايب الحضارة الحديثة فى بلاد مستعمرة ، وهو ليوبولد بلوم .

وليس فى الكتاب من أوله الى آخره مايدل على تلك العلاقة أو شبهها ، ولو كان ستيفن يعد بلوم أباً فكيف نكل به وفضحه وأقذره وسود صحائفه وأثقل كاهله بالنقائص من أول الكتاب الى آخره وجعله مسخ الأجيال ومهزلتها وأضحوكتها وألعوبتها وسخريتها ؟ ولو شاء جويس أن ينتقم من أبيه الذى ينسب اليه حقاً ، وقد ذكره (سيمون ديدالوس) لفعل به شيئاً مما فعله بليو بولد بلوم . وكان بلوم الثاكل يذكر طفله المتوفى كثيراً فى مناسبات شتى ، لأنه درج على تتبع خواطره كما ذكر المؤلف فى مواطن كثيرة من الكتاب وكما وصفه ، فلما كانت الصفحة الأخيرة والمنظر الأخير من الدرامة كان ستيفن ديدالوس طريح الأرض من أثر لكمة أصابته من يد الشرطى رمبولد ، وبجانبه ليوبولد بلوم يواسيه ويستنهضه ليخلصه من مخالب المعتدى عليه وستيفن رجل فى الثلاثين من

عمره، وليوبولد بلوم سكران لايكاد يبين أو يرى أو يعقل ، وهذا الذى جعل ستيفن يدمدم ويهذى من شدة الألم والكدر والخيبة لفقد العون.

فيحاول بلوم على عجزه حمله وإنهاضه ، ثم ينظر الى وجهه فتنبعث فى ذهنه المخبول خواطر عليل فيحدث نفسه قائلا « إن الوجه يذكرنى بوجه أمه المسكينه ، فى الغابة الظليلة ... الصدر العميق الأبيض ، فرجسون أظن أن فتاة قد أخذت بيدى ويضع فتيات . وهذا خير مايحدث له (يدمدم) أقسم سأهتف . وأخفى ولن أظهر جزءاً أو أجزاء ، فناً أو فنوناً فى رمال البحر الخشنة ، على طول سلك يرقى فى الماء ، من الشاطىء ، حيث يبدأ « المد والجزر » ثم ينهض بلوم ويضع سبابته على شفتيه علامة الصمت ، ويتخذ وضع أستاذ ماسونى يحفظ السر ، وعلى الجدار المقابل المظلم يبدو شبح بطىء لطفل من أبناء الجن سنة ١١ سنة . طفل غرير أبله متردد متحول ، وقد ارتدى ثياب كلية إيتون لأولاد الأعيان ، وله حذاء من الزجاج وخوذة من البرنز وفى يده كتاب يقرأه من اليمين الى الشمال (كأنه عربى أو عبرى) بصوت غير مسموع ويبتسم ثم يقبل الصفحة التى يقرأ فيها ، فيصعق بلوم صعقة

الدهشة وينادى بصوت خافت : رودى ! ، فيحدج الطفل فى وجهه بعينين لا تريان شيئاً ويستمر فى قراءته ثم يقبل الصفحة ويبتسم ، وله وجه دقيق ضارب الى الأرجوانى وأزرة ثيابه من الماس والياقوت وفى يده اليمنى عود من العاج له ربطة من البنفسج وتتدلى من جنب صدريته قطعة من فراء حمل بيضاء .

هذه هى النبذة التى تحكك بها بعض النقاد الأدعياء ممن لم يقرأوا الكتاب بل يتصفحوه وزعموا أنه يمثل لقاء ستيفن بأبيه بلوم، أو تليماك وعولس ! وبنوا عليها قولهم إن ستيفن ديدالوس كان يبحث عن أبيه حتى عثر عليه فى بيت سيرسيه شخصاً « هلفوتا » منحلاً متهالكاً مخموراً منكلاً به وممثلا به قد اتخنته بعض النساء مطية ألا فليخجلوا ! إنه هذيان سكير عربيد فى آخر الليل ، ولكن بلوم هذا لم يفقد عاطفة الأبوة فتذكر طفله كما يحدث للسكارى ، ذلك الطفل الذى قضى بعد الأسابيع وماتزال أمه فى النفاس ، ولم يشب عن الطوق ولم يبلغ الحادية عشرة حتى ولا الشهر الحادى عشر !

أما قوله إن وجه ستيفن يشبه وجه أمه المسكينه فهو يقصد الى وجه أم ستيفن نفسه ، وجه ماريون أو مولى لأن بلوم عرف

أسرة ديدالوس وعرف سيمون ديدالوس وزوجته « أم جيمس جويس» وليس هناك مايدعو الى وصف زوجته الحية التى تسعى بأنها مسكينة ، وهى التى تسقيه العلقم بدعارتها وتهتكها .. حلم سكران . وشبح ترآى لمخمور كأنه من أرواح الجن ، لا من أبناء البشر .

ولكن فن جويس وخياله الخصب وقدرته على التمثيل والتصوير وفكرته الرمزية وتحليل النفس هى التى خلقت تلك الصورة الفاتنة ، وما أعجب قدرة المخرج المقسوم له المجد إذا استطاع أن يخرج شريطاً مصوراً ناطقاً من تلك الدراسة الخالدة!!

هذا أحق وأخلق بتفكير الناقدين من جريهم وراء الأوهام التى لا أساس لها ولا علاقة لها بالمقاصد البعيدة الغور للفنان العبقرى .

وبعد أن ينهض ستيفن ويسير متكئاً على عصاه فى صحبة بلوم يقصدان إلى مكان لشراء فطير محلى بالسكر يسد جوعتهما فيلقاهما فى سواد الليل وفى تلك الناحية القصية المقصودة من الهواة والغواة والباحثين عن اللذات المحرمة فى قبور الأحياء جون كورلى وهو صديق قديم لستيفن قعد به الدهر وأحوجه للقوت

الضرورى والفراش فلا يجدهما ولا يجد عملاً ، وقد درج على الإدمان فيخلو بستيفن ويشكو له عذره ، فيقرضه نصف كرون .

وقد أعاد هذا الحادث الى ذهن جويس حياة البوهيم وفلاكة المفلوكين وحالته بعد أن غادر بيت أبيه ولم يكن يجد قوتاً ولا فراشاً ولا صدراً حنوناً بعد صدر أمه وحب أخوته .

ثم يلتقيان (ستيفن وليوبولد بلوم) بموليجان (بك موليجان) - وهو طالب الطب، صديق ستيفن من الساعة الأولى فى هذا اليوم على سطح البرج فيتحدثون فى مقهى ويعثرون على بحار (مورفى) عاش سبع سنين بعيداً عن وطنه وبيته وزوجته ، فيشبهه جويس بالسندباد البحرى ويدور الحديث على مورفى مدة طويلة ، وحتى هذه الواقعة الطارئة لا تمت الى الأوديسة بسبب ، سوى اغتراب البحار ولا عجب فيها لأن الأيرلنديين كالإنجليز أمة بحارة وقد يغيب الملاح أو القبطان عن وطنه سنوات فى عمله ولا يوصف بأنه سندباد أو عولس ! وقد عاد البحار مورفى بأخبار ونوادر مما شهد ورأى وسمع وفيها بعض الغرابة مما قد لايصدقه كل مستمع مثل لعبة الورقة التى تبدو خارقة للعادة فى زمن جويس ولكنها صارت شيئاً عادياً معروفاً وهى اختراع يابانى ، بيانها أوراق صغيرة فى حجم

الفولة أو القمحة ذات ألوان مختلفة تضعها فى الماء فتنفتح عن أزهار وثمار وتصاوير وحيوان وحشرات .... إلخ (ضع ورقة فى الكباية تطلع فلاية) كما كان ينادى عليها الباعة المتجولة .

فهذه بدت فى أول أمرها - غريبة للمستمعين لحديث البحار مورفى وظنوها تحفة أو خرافة ، ثم يكشف البحار عن الوشم الذى اصطنعه على بدنه فإذا هو متحف متجول ولا سيما الخلط بين صور النساء العاريات وبين آيات الإنجيل على ظهره وصدره وذراعيه والنقوش الملونة مكتوبة بلغات شتى وألوان مختلفة مما يجعل جسمه بدعة ثم يستطردون بسبب حضور الطبيب (موليجان) للكلام على الأمراض السرية والكشف عن النساء والبغاء المباح والمحظور ، ثم يعودون الى البحار مورفى .

وفى ص ٥٩٦ يرفع القناع عن جنسية مولى بلوم وأنها يهودية إسبانية مولودة فى جبل طارق ، وهذا سر كلامها عن جبل طارق فى آخر الكتاب وتفريطها فى عذريتها ولما تبلغ الحلم .

وفى ص ٥٩٩ سر عجيب يدل على اطلاع جويس على أدق أسرار السياسة الدولية وأخفاها كذلك السر الذى جهر به فى ص ٣٣ وحلم يتحقق حالاً فيها وأعانت الأقدار على تمامه .

ووقعت أشياء بعد نشر الكتاب سنة ١٩٢٢ يقيناً تدل على صدق نظر جويس وصحة نبوءاته .

وفى ص ٦٠٧ اعتقاد عوام الشعب الأيرلندى أن زعيمه بارنل لم يمت وأن اختفاءه كان دسيسة من الإنجليز أو حيلة منه ، وأنه مايزال على قيد الحياة سوف يعود الى بلاده مكللاً بالفخر متوجاً بالعظمة القومية ، والمقصود فى الحقيقة أن أيرلاندا فى سنة ١٩١٤ كانت تعتقد أنها ستنال حقوقها وحريتها وكان بارنل رمزاً لها وقد تحققت آمالهم على أيدى أتباع الزعيم وأنصاره بعد وفاته .

وهذا يشبه مايظنه الألمان بعد الهزيمة فى هتلر وما ظنه أتباع بعض العظماء بعد موتهم ، وقد زعموا مثل هذا الزعم فى كتشنر ونقولا الثانى القيصر الظالم فى روسيا ومثلهم فى ذلك العقيدة الإمامية ، فمازالوا ينتظرون الإمام الثانى عشر أو المهدى المنتظر ! .

قلنا قد صحت كهانة الشعب الأيرلندى ، لأن حلمهم ببارنل وتعلقهم به لم يكن لأجل شخصه ، ولكن لأجل حريتهم وقد تحققت على أيدى رجال غيره من أتباعه أمثال جريفيث (وقد قضى نحبه وسط الجهاد) وديفاليرا .

ولا خلاف ولا فرق وقد حدث فى مصر فى سنة ١٩٤٧ أن تحققت آمال مصطفى كامل التى تمناها فى سنة ١٩٠٧ ، لأن حياة الأمم لا تتعلق بفرد أو أفراد أو حزب أو أحزاب ، إنما كل فرد وكل حزب يتم قسماً من الواجب عليه نحو وطنه ومصطفى كامل صنع ماقسم له أن يصنع ، وزرع شجرة طيبة ومباركة وخلفه ممن أحسن أو أساء ، وتقلبت الدنيا ولكن لابد لهذا الحلم المقدس أن يتحقق فيكون تحقيق هذا الحلم كاملاً بمثابة بعث مصطفى كامل وعودته الى الحياة متوجاً بالفخار والخلود معترفاً له بالجميل وكأنه نجا من الدسيسة التى أخفته أمداً عن الأنظار .

ومازال أصحابنا بالمقهى وما هو بالمقهى ، بل مخبأ أو مو
أو خيمة أو قباء معدة لإسعاف الحوذية والمارة من المتأخرين ليه
ليتبلغوا بلقمة خبز وزبد أو جرعة ساخنة من قهوة أو شاى ، فيدو
الحديث (ص ٦٠٧ - ٦١٠) على بارنل وإن تكن وطنية جويس لا
تبلغ حرارتها درجة عالية (لأن شعبه لم يصنع له شيئاً ولم يمد ا
يداً ، ولم يبذل له جوداً وهو فى أحرج الأوقات فهو ليس مديناً لقوه
بشىء) ، إلا أنه يعجب بالعظماء وأهل المروءة والنخوة والأخلا
العالية ممن يقفون حياتهم على المصلحة العامة ، ثم يتلوه حديث عن

الموسيقى ، وهو الموضوع الذى يحبه جويس لأنه يغنى ويوقع على أدوات الموسيقى كلها ، وله صوت جميل وكذلك أخوته وأولاده، خلة ورثها عن أمه .

وفى ص ٦٢٤ يشرح طريقة عمله فى التأليف ، وما استودعه كناشته منذ كان فى باريس حوالى سنة ١٩٠١ ، وفى هذا الفصل فن جديد وصنعة جديدة ومنهج مستحدث وطريقة طريفة كتلوين الشخصيات ، فهو يعرفها بوسيلة غير مباشرة وهى معرفة شخص آخر ، وفى ص ٦٤٧ أغان عن قتل أهل إحدى الملل أبناء ملة أخرى لينتفعوا بدماء القتلى فى أعيادهم ، وهى لا ريب أسطورة ، ثم كلام فى الفلك وفى تشبيه النساء بالكواكب والقمر وكلام فى علاقة الجنسين ، ومناجاة ماريون بلوم الشهيرة وهى ختام الكتاب .